رواية

كدوة الدّيس

د. على الطاهر

يسطرون

مؤسسة يسطرون للطباعة والنشر والتوزيع

رئيس مجلس الإدارة

عماد سالم

المدير العام

أحمد فؤاد الهادى

مدير الإنتاج

أحمد عبد الحليم

الطبعة: الأولى

الكتاب: كدوة الديس

المؤلف: د. علي الطاهر

تصنيف الكتاب : رواية

التصميم والإخراج: م/ محمد سالم

المقاس: ١٤ × ٢٠

رقم الإيداع: ٠٠٠٠٠ / ٢٠١٩

الترقيم الدولى: 978 - 977 - 776 - 000 - 0

العنوان : المكتبة والمطبعة : ٣ ش صفوت - محطة المطبعة شارع الملك فيصل - الجيزة

التليفون : ٠١٢٢٩٣٠٠٠٢٩ - ٠١١٥٧٧٦٠٠٥٢

Email : yastoron@gmail.com

موقعنا على الفيس بوك : مؤسسة يسطرون لطباعة وتوزيع الكتب

جميع الحقوق محفوظة للمؤلف

إهداء

إلى ابنتي رؤى التي أرى فيها اثنتين:
شريكة العمر: عائشة ضو، أمها.
والأديبة:غالية يونس الذرعاني.

مـا نحـن إلَّا ذكرياتُنـا والمسـؤوليةُ الـتي نتحملُها، فمِنْ غير الذكرى لا وجودَ لنا، ومن غير المسؤولية لا نستحقُ الحياة.

جوزيه ساراماجو

(١) (حُومَايْ)

توقَّفَتْ نبضاتُ الزمنِ لتهمسَ في مخيلةِ (عَمَّار) نوتةَ السبعيناتِ وهـو رابضٌ في تلكَ الحفـرةِ في جزيرة (فيرديناندیـا) إحدى جزرِ المتوسطِ التابعةِ لإيطاليا، لا يَنْتِفُ تلكَ النَّوْتَةَ إلَّا هَدِيرُ المروحيةِ التي تدورُ فوقَهُ هُو ورفَاقهَ؛ باحثةً عن صَيْدِهَا.

أنا هو عَمَّار، ذلك الرابض في الحفرة والذي تَدورُ في تلك اللحظات بمُخَيِّلَتِـه صُوَرٌ خُرَافِيَّةٌ، لتَتَّخِذُ مـن غموضِ جِلجَامِش عباءةً لَهَا، ، صُوَرٌ ارتَسَـمَتْ مـنْ وَحْي فَرْخِ حَمَامٍ وَجَدهُ تحـت نَخْلَةٍ بالقربِ منْ مزرعتهم، كَمْ أَبْهرتْهُ بِطُولِهَا.

وَلا زَالَتْ تَدورُ بِمخيلَّتِهِ صُـورةٌ أخرى للعِبَارةِ التي كَتَبَهَا أَخُوهُ علـى الحَائطِ بِقِشْـرِ الرُّمَانِ، لم تندثرْ ولم تمْحُهـا أيادي الزمنِ ولا أكتافُ خالِهِ الذي تَعَوَّدَ حَكَّهَا على نفسِ الحَائِطِ.

يَسـتظِلُّ البيتُ بشـجرةِ (سَـرْوَلٍ) عِمْلَاقةٍ، تُهيمنُ على المزرعةِ وعلى المزارعِ القريبةِ، يبدو من ضَخَامتِها أَنَّ عروقَها عَثَرَتْ على رَافِدٍ لنهـرٍ، وَلَيْسَ بِبَعيدٍ ذلكَ؛ فالبئرُ الـذي حَفَرَهُ والدُهُ بِيَدَيْهِ وبمفردِهِ قَـدْ تَفَجَّرَتْ مِنْهُ عينُ مَاءٍ، فَتَكَتَّمَ على الخَبَرِ؛ خَوْفَ أَنْ تَضَعَ الدولةُ يَدَهَا على المزرعةِ التي عَثَرَ فِيهَا فِيمَا بَعْدَ عَلى جِذْعِ شَـجرَةٍ مُتَحَجِّرٍ لا شَكَّ أَنَّهُ يعودُ لملايين السنين.

تَرْبُضُ المزرعةُ على طرفِ القريةِ غَرباً، وقْتَها كانتْ أَبْعَدَ مَزرعةٍ عن وَسَطِ القريةِ، تَحُدُّها الحَطِيَّةُ [1] المزْدَانَةُ بالنَّخيلِ شَديدِ الخُضْرَةِ، والمزدانةَ أيضا بِرمالها الزُّجَاجيةِ، التي تَتَراقَصُ فيها أَشِعَّةُ الشَّمْسِ، بَينَمَا المَزرعَةُ طينيةُ التُّرْبةِ، عَلى مُختلفِ الألوانِ، الأبيض والأزرق والأحمر وغيرها، فلا تكادُ المياهُ تَتَسَرَّبُ إلى الأسفلِ؛ مما يَتَسَبَّبُ في تَجَمُّعِ المياه، إمَّا من المطرِ وهو قَليلٌ، أَوْ مِنْ سَبْخَةٍ تَطْفَحُ مِيَاهِها، أَوْ

(١) الحطية: هي غابة من النخيل أو نحوه.

مِن الرَّيِّ، وَلازالَ صَـوْتُ (المَاطُور)[1] يُرَتِّلُ في أَسْمَاعِهِ آياتِ الخِصْبِ والنَّمَاءِ، ويترَنَّمُ بأبجديةِ عَشْتَارَ لِيبيَا.

وكَعَادتِهـا تُزْهِرُ في قَبْضَتِـهِ أَغصانُ (القَضْـب)[2]، ولم يَغِبْ عن نَاظِرَيْـهِ (حُومَايْ) حِمَـارُ المزرعةِ كما يَلْفِظُ اسمَهُ وهو يقلِبُ سـطلَ المـاءِ بعدَ كلِ مرةٍ يشـربُ فيهـا مِنْهُ، ولم تَجِـفَّ في عقْلِهِ إلى اليوم تلكَ السبخةِ المُحَاصَرَةِ بنبات الدِّيس، وما خلفتْهُ من مُسْتنقعٍ أصبحَ مَحَطَّةَ (تَرَانْزِيـْت) للغَرَانِيق[3] ودجاجِ الماءِ الذي يعجزُ عن الطيرانِ بعدَ عّبِّ الماءِ، أما الغرنوقُ فشأنُهُ في نفسِ عَمَّار جَليلٌ، ولكنَّ ما يحظى باهتمامِ عمَّار هو تلك الراقصاتُ الصغيرات الحالمات التي تتوزعُ على الجانبَ الآخرِ من المزرعة، تلك العصافيرُ الصغيرةُ التي أُجْبِرَتْ على أن تلعبَ دورَ الفريسةِ لعمَّار وأترابه، وهي التي نَمَّتْ فيهم الهوايةَ الأولى للإنسـان الأولِ وهي الصيد، فكان للصيـد متعةٌ أخذتْ ألبابَ الكبارِ قبل الصِّغار، فمنذُ اللحظة الأولى التي تَنْصَبُ فيها شِراكاً تقعُ أنتَ في شِرَاكِ العصفور، فيأسُركَ بقفزاته أمامَ الْمِنْدَفِ[4]، هذه العملية

(١) محرك ديزل (موتور) يُستعمل للري قبل ظهور المضخات الكهربائية.
(٢) القضب: البرسيم.
(٣) الغرانيق: جمع غرنوق وهو طائر مستنقعات وأنهار واسع الانتشار.
(٤) المنـدف: أو المنداف وهـو المصيدةُ الخاصةُ بصيـدِ العصافير، يُصْنَـعُ الْمِنْدَفُ من

تمثلُ قمةَ الإثارة، وتُسمى التَّنْصِيب، مِن نَصْبِ الفِخَاخِ والمصائد. انطلق عَمَّار ليبحث عن دودة تحت إحدى أشجارِ النخيل، فلا مجال للإمساك بالأَبْلَقِ إلَّا بتلك الدودةِ تعيسةِ الحظ التي سيخطفها الأبلقُ تعيسُ الحظ أيضًا، فطلبَ من أخيه أن يساعده في البحث تحت جذعِ النخلة، فيما أخذ عمَّار بالتصفيق وترديد أغنية البحثِ والتَّكْلِيخِ.[1] عن الدود:

(شِيخ الدود عَطِيني دُودَةْ.. بِيشِ نْحَبِّلْ لِي مَسعودةْ).

رَدَّدَها حتى أعطاهُ شيخُ الدود إحدى قَرَابينَهُ لأجلِ البَقَاءِ، التَقَطَها ووضعها في عُلبة طماطم صَدِئة، أضافَ عليها بعضَ التُّراب، انطلقا بالسجينة التي نُقِلَتْ بالعلبة الحمراء، اختارا مكانًا مناسبًا، يضمن لهم الاختباء، ويكون واضحًا للعصفور ليرى الدودة وهي معقودة في سَعْفَةٍ، وتتحرك بشكل دائري، تمارس طقوسها الأخيرة، وترقص رقصة النهاية كالتي سيرقصها قاتلها من بعدها،

عرجون بلح، يُثْنَى ليُشكلَ قوساً، ثُم يُشَبَّكُ بِضَفْرِ السعَفِ، يُربَطُ طَرَفَا العرجونِ بحبل ملفوفٍ، تتوسطُه عصا وتُدقُّ بالأرض، وتُوضعُ دودَةُ الأرض بطريقة معينة، فعند محاولة العصفور خَطْفَ الدودة يُطبقُ عليه المِنْدَفُ.

(١) التكليخ: الحفر باليد بحثًا عن الدود.

وُضِعَتْ الراقصةُ بمكانها، وأخَذَتْ في الحال ترقُصُ جاعلةً من المِنْدَفِ مسرحا تراجيديا.

ابتعد عمّار وأخوه قليلا واختبئا خلف شجرة رُمَّان، لكن الطيور كما تحاول وِفقا لغريزتها أن تنْهبَ الطعام من بعضها بعضا فإن أنواعا منهـا تأبى أن تلاقي الطيور الأخرى مصيرا سـيئا كالذي مَرَّتْ هي بـه، فالعصفور الذي تَمَّ اصطيادُه من قبل وتمكن من الفرار بأعجوبة من أيدي البشـر يتحـول إلى متطوعٍ منقذٍ لبني جنسِـهِ، فيقف أمام المِنْـدَفِ ويمنع أي طائر من أن يلتقطَ الـدودة، وهذا ما حصل في تلك الأصبوحـة، فقد حرَّمَ أحد العصافير علـى إخوته وحاول إنقاذهم، فَخَيَّمَ الحزنُ على الصيادَيْن، مما اضطرهما إلى طرد ذلك العصفور من المسرح، ليصفو لأحد تُعسـاء الحظ الاستمتاع بلحظات لن يتسنى له الندم عليها.

توافَدَتْ بعـد ذلك مجموعات من العصافير منهـا الأبلقُ وأحمرُ الـرأس والتِّيبَرِ والـزُّرْزُورِ، وانتظر عمار لعل أحدهـا تفتتنه تلك الراقصـة فينقـض عليها، حتى جـاء أحدُها، وقَدَّمَ آخِـرَ عَرْضٍ له بجناحيـه، إنه الأبْلَقُ التُّرابي، وقد كان للعصافير طُقُوسـها عندما تُقْدِمُ على آخر حماقةٍ لها، فَرَدَ جناحيه وقَفَزَ يمينًا ويسـارًا، تَقَدَّمَ

وتأخــرَ، وفي غفلة للراقصة تجرأ ليقــدم لها قبلة الموت، أطبق عليه المِنْــدَفُ، فلا ثانية إضافية يمكن أن يســتثمرها للهروب، ولا ثانية ترجع للوراء ليغير رأيه، انطلق عمار وأخوه يسابقان تلك الثواني، وصلا وألقيا القبضَ على الأبلقِ التعيسِ متلبسًــا، أخرجاه وتم تقييد رجليه على الفور بســعفة، أمســك عمــار بطرف الســعفة، فتدلى العصفور لأســفل، وعاش آخر لحظاته تحســرا لعدم امتثاله لنصائح ذلك العصفور الذي حاول وحاول منعه.

اقتيدَ العصفورُ البائس، وبدأت المساومات بين عمار وأخيه حول نصيب كلٍ منهما في العصفور الذي لا يتجاوز حجمه ولا وزنه حجم تمرة أو وزنها. لم يتعلــم عمار ذبح الطيور بعد؛ لذا طلب من أخيه أن يذبحه له، فوافق بشرط أن يأكل منه، فلم يقتنع عمار، لكن أخاه أقنعه بقوله:

ـ ألم تسمع بمقولة: ما ذبح ذابح قط إلَّا وأكل منه ؟

اقتنــع عمــار على الفور ظنا منــه أنها قرآن منزل من الســماء، وبالطبــع لم يكن لأخيه طمع في العصفور لكنــه اختبار لكرم عمار، وقد فشل فيه.

رجــع الاثنــان بصيدهما، وتركا ذلــك المســرح مفتوحًا، وتلك

الراقصة تــؤدي فقرتها التالية، ومرا بالقــرب من حمار المزرعة أو (حوماي) كما يلفظه عمار.

لم تكن العصافير الصغيرة وحدها التي تتقاسم مع الأسرة الأرض، فقد أصبحتْ المزرعةُ مســرحاً لكلِّ غُرنوقٍ تَخلَّفَ عن سِربِهِ مَرَضاً أو تَكَاسُلا، أو رُبَّما انْفِصَالا أُسَريًّا. أُغْرِي الغُرْنُوقُ سيدُ السماءِ بالمزرعة بما تحتويه من جداول تشكلُ بعضَ البركِ، فتفتَرِش بأنواعِ الطيورِ، صغيرها وكبيرها، ولا شيء كالغرنوقِ الذي يمتلك الأرض ويتخذها متكئاً وملهى، وببســطُ جناحَيْه ليمتلكَ الســماءَ، كان عَمَّار يخافه كثيرا؛ ظنًا منه أنه يستطيع حمل صغار البشر كالعنقاء، ولهذا حَمَلَ صورتَه نقشــاً في الذاكرةِ، عَنقَاؤهُ هــذه لا تعرفُ الخوفَ كما يَخَافُ هُوَ، فعندَ اقلاعِها ذاتَ مرةٍ كان عَمَّار على مقربة من مَدْرَجِهَا، لاحظ اقــتراب ظلٍ منه، رفَعَ رأسَــهُ وإذا بها متجهة نحوَه، غرنوق هائل الحجم، يكاد يلامسُ رأسَــه، فانطلق هلعا بنفس اتجاهِهِ بأقصى ما أوتي من ســرعة، وقــع في المياه الراكدة فتغير لونــه طينا، فَلَتَ من الطين وأكمل الجري، ولم يمســكه إلَّا (الزرب) وهو سياج من جريد النخيل يفصل جزءًا من المزرعة، كان الزرب عاليًّا، ولم يعقه، قفزه وواصــلَ ركضَــه وعَينَاهُ تَدْمَعان، مقفلا فمــه ويصرخ في جلده، حتى وجد نفسه واقعا تحت أقدام حمار المزرعة (حُومَايْ).

الصديــق هو شــخصٌ مــا منحــك الحرية الكاملة لتكون ما أنت عليه.

جيم موريوس

(٢) الجَابِيَةُ

تَشَــارَكَ دِيَــابُ دَرَّاجَتَــهُ الإيطالية معَ صديقيْــهِ الأصغر منه: (سَاسِي) و(عَاشُــور)، راكبا أمام السائقِ مرةً، وسائقا أخرى، ومرةً يجــري وراء دراجَتِهِ لاهثا، فالدراجــة وإن حملت الثلاثة فإنه من الصعوبة قيادتها بتلك السيقان الرفيعة لثلاثتهم، خاصة وأن بعض المناطــق تغمُرها الرمال، وهي أكبرُ عــدو لراكبِ دراجةٍ بعد الرياح المُضادةِ.

كانت وجهتُهُم مزرعةً في شــرقي البلدة لقضاء يوم من المرح، تمر بهم طريقهم بين البســاتين والمزارع القديمة، الغالبُ على أشجارها النخيل، يأتــي بعده شــجر الأثل العتيق، وســتجبرهم الطريق على المــرور بجانب أثلة كبــيرة، يقال أن جثة إنســانٍ وُجِــدَتْ مرمية

بالقرب منها قبل سنين، فكانت تلك هي المسافة التي على الثلاثة اجتيازها كالبرق، فلا أحد يطيق نظرات الغولة المرعبة، بأظافرها الطويلة وشعرها المجنون كما تخيلت عقولهم.

وكان عليهم اختيار من سيقطع مسافة الأثلة على رجليه لا راكبًا، أقنعَهم دِيَاب بركوبه هو؛ لأنه صاحب الدراجة؛ لذا سيقودها هو، وسَاسِي هو الأضعف بنية؛ فلا يجدر أن يتخلف، فاقتنع الثالث عاشور، ولا يمكنه أن يرفض القسمة، نزل عاشور ليتيح المكان لسَاسِي، انطلقوا جميعًا قبل وصولهم الأثلة بحوالي خمسين متراً، الغريب أن عاشور المترجل سبقهم بمسافة، كان يسابق الريح، روحه على كفه، حتى بلغوا نقطة الأمان، أُجْهِدَ الثلاثةُ، تَرَجَّلَ الجميعُ، أخذوا يتبادلون دفع الدراجة، فالمكان يعج بالرمال مع وجود مرتفع، وصلوا كدوة الديس،وهي مرتفع رملي يكثر فيه نبات الديس، تشبه أجمة الأسد، قسمتها طريق المركبات إلى قسمين، وفي أعلى الكدوة لاحظ سَاسِي شيئًا يتحرك.

ـ إنه أرنب يا دياب، أنا متأكد منه.

ـ حسنًا سيكون على الغداء إذا تمكّنَّا من إمساكه.

ـ سيقوم عاشور بإمساكه. هههههه. لقد أثبت أنه أسرعنا ركضًا.

ـ المفـترض أن نحاصره في الداخل، ونسـتفيد من الديس الكثيف في الإمساك به.

تقـدم الثلاثة، كلٌ من جهته، رافعين أيديهـم جانبًا، أعينهم على تلك الحفرة التي اختبأ بهـا الأرنب، انقضوا في ذات اللحظة، رموا أنفسـهم على الحفـرة ليباغتوا الأرنب فانفجـرت فيهم تلك الكلبـة مدافعة عن جرائها، كان جرو كلب وليـس أرنباً، وانقلبوا يلهثـون مذعورين، تَخَطَّوْا الديس، ثم أجبرتهم مطاردة الكلبة على أن يقفزوا الجانب الآخر لكدوة الديس ويسـتترون به، اختفوا خلفه مباشرة، طبعا تركوا دراجتهم في مكانها بينهم وبين تلك المسعورة، تمركـزت الكلبة في جانبها بينما اختفوا هم في جانبهم، وكلما رفع أحدهم رأسه نبحت فيه بأشد ما تملك فيختفي مجددا.

لا حراك. أطرافهم تخدرت، ومن لم تتخدر أطرافه فهي ترتعش ولا تقوى على حمله. ظلوا على هذه الحالة أكثر من سـاعة، والكلبة تنبح والرعب يتضخـم، والوقت يمر، حتى تجرأ دياب ووقف فإذا بالسلسـلة تعيق الكلبة عن التقدم خطوة إلى الأمام، تنهدوا ونهضوا بعدها مستقوين بالسلسلة، أكملوا طريقهم فيما عادت الكلبة لأرنب سَاسِي كما تخيله.

وصل جميعهم أجسادًا دون أرواح، ومن بقيت لديه بعض روح خرجت مع نباح كلب الحراسة مع مباغتته لهم والجري فيهم لخطوات، تقافزوا كالظباء ظانين أن تلك الكلبة لا زالت تطاردهم.

كان بانتظارهم زملاء دراسة سابقين، تم نقلهم إجبارا بسببِ شغبهم الدائم، وبعد اعتدائهم بالسَّبِّ على أحد المعلمين ورشق سيارته بالحجارة.

كانت تلك (الزردة)[1] أو النزهة هي الأولى التي تجمع هذا التشكيل، وكان هدفهم المشترك هو السباحة في تلك الجابية الكبيرة ذات المياه داكنة الخضرة؛ بسبب تكاثر الطحالب على جدرانها، وتجمع أوراق الأشجار فوق سطحها، وكذلك بسبب الحشرات المختلفة التي فقدت قدرتها على الطيران أو السباحة فتجمَّعت لتشكل سحابة ملونة على وجه الماء، لأول مرة سيسبح عاشور، ذلك اليوم هو بمثابة إعلان سن الرشد الطفولي، فلم يبق من الأشياء التي يتعلمها الشباب شيء إلَّا العوم، وبعض الأشياء الطفيفة الأخرى، إن مهارة عاشور في كرة القدم وسرعته العالية في الركض ولياقته البدنية لم تغن عن فشله في تعلم العوم، فالعلة ليست متعلقة في

(١) الزردة: النزهة.

الجسد، بل بالنفسية، فهو يعاني من رُهَابِ المياه، ذلك بعد أن حاول أخوه الأكبر إغراقه مازحًا عندما كان في السادسة من عمره، فَكَبُرَ وكَبُرَ معه الخوف من المياه، وأصبح يختنق لمجرد رؤية المياه في سطلٍ.

أما سَاسِي فكان له هدفان،الأسمى هو أن يكمل دياب تعليمه التدخين على طريقة المحترفين فيه، بعيدا عن الرقابة والأعين التي تخرج عليه من كل فتحةٍ أو تلحظه من أحد الرَّوَاشِن[1]، ففي نظره أنه تعدى الثانية عشر من عمره ولم يلحق بركب الرجولة، وتخلفُهُ هذا بسبب إخفاقه في عملية إخراج الدخان من أنفه، الهدف الثاني هو كيفية الغوص والسباحة في القاع، فهو يتقن السباحة العادية، بقي تعلم تقنية الغوص الذي يتطلب إخراج جزء من الهواء من رئتيه كي ينزل للقاع ومن ثم يسبح أفقيًّا.

دياب كان الأكبر والأكثر خبرة والأدهى، تجاربه لا تحصى، فهو أحد خبراء جيله في التعامل مع المواقف الصعبة التي تكشف عن أهلية أحدهم لخوض التجارب الرجولية، وهذا يؤهله لأن يكون القائد دون منازع، هذه الدرجة القيادية جعلته الموجه لصديقه سَاسِي

(١) الروشن: النافذة أو الكوة في الحائط.

في مختلف شؤونه، راعيًا له عن قربٍ وعن بعد، فتطورت علاقتهما بشكل سريع، خاصة وأن سَاسِي ليس له أدنى معارضة لرفيقه أو رأي يستقل به دون أخذ مشورة، ولم يكن لعاشور الانقياد التام، ذلك لتكوينه النفسي المختلف، فهو الآن كبير إخوته بعد أن تُوفِّي أخوه الأكبر في حادث سير، فقد تحرر من تحكم أخيه وجبروته، تحرر من كل شيء إلَّا مسألة خوفه من الماء التي استوطنت عقله وروحه وتكبر كل يوم يكبر فيه هو.

تكفل الأصدقاء الباقون بمصاريف (الزردة)؛ فقد كان لهم مصدرهم المالي الخاص الذي يضمن لهم سد نفقات النزهة بسجائرها.

لم تكن الجابية [1] ممتلئة تماما فعمد دياب إلى المضخة فامتلأت الجابية التي يقارب عمقها الثلاثة أمتار إلَّا قليلًا، فيما أحضر سَاسِي وصديق آخر بعض الحطب وأشعلوا نارا لعمل (المُبَكْبَكَة) [2]، ولم يُكْمِلْ الأصدقاء مَكْرُونَتَهُم فتقافزوا واحدًا تلو الآخر إلى الجابية، وهم على يقين بالعودة لباقي (المُبَكْبَكَة) بعد ساعة أو أكثر بعد أن يعضَّهم جوعُ ما بعد العوم.

(١) الجابية: حوض مياه كبير يُستخدم لتخزين المياه للري.

(٢) المبكبكة: هي المكرونة بطريقة إعداد خاصة.

حرص عاشور على أن لا يفوِّت هذه الفرصة لاستعادة ثقته بنفسه ويكسر حاجز المياه، وقد استلم دياب مهمة التدريب، فقد كان بارعا في الإقناع وذا خبرة في توصيل المعلومات. كادت تختنق الجابية بالمياه، وصلت إلى شفتها العليا، ووصلت خطة دياب ذروتها من الحبكة، وقد تمثلت في شيئين: الأهم هو قهر الخوف في صدر عاشور ليتسنى له هزيمة هذا السائل المخيف، الثاني هو تعليمه خطوة بخطوة، مثلما علمته أمه المشي وهي تردد:

دِيدِّشْ حَبّ الرُّمَّانْ دِيدِّشْ قّصْعَةْ ودْهَانْ
دِيدِّشْ ياكل الدِّشِيشْ دِيدِّشْ يَكْبَرْ وِيعِيشْ.[1]

طلب دياب من عاشور الوقوف بمسافة مترين وتكون زاوية الجابية عن يمينه، وأمره بالقفز وصولا إلى الضلع الثاني في أقرب نقطة للزاوية.

ـ هيا يا عاشور. أنت شجاع وتستطيع القيام بأكثر من هذه القفزة.

ـ ولكن يا دياب...!

ـ لا لكن ولا شْي.. ما عليك إلَّا أن ترمي جسدك بقوة على صدرك

(١) ديدش حب الرمان: أغنية ترددها الأمهات عند تعليم الأطفال المشي.

وتنطلق بشكل مائل، إن المسافة لا تتجاوز ثلاثة أمتار. المتر الأول سيكون في الهواء، بقي متران ستحملك المياه وتنزلق بقوة اندفاعك.. يا عاشور اقفز هيا..

تردد عاشور.وقال في نفسه: ربما هي النهاية التي كنت أحلم بها في منامي باستمرار. لكنني لست وحيدا.. الجميع معي وسينقذونني إن فشلت، ثم ماذا سيقول عني الأصدقاء؟.. سأقفز ويحدث ما سيحدث.

نطق عاشور بالشهادتين وقفز. وانزلق كالزورق فوق المياه وقادته إلى الحائط المقابل كما خطط دياب، خرج من الماء ووقف على الحائط، فرح الجميع مع صيحات دياب الطرزانية، ويرد عليه عاشور بمثلها إيذانا بانكسار حاجز الخوف.

كان إنجاز عاشور هو إنجاز العمر، وشعر في تلك اللحظة أنه يستطيع السباحة إلى مالطا، فاندفاعه لا حدود له، قرر في لحظتها أن يقطع الجابية بالطول، أي مسافة عشرة أمتار من المياه التي يقارب عمقها الثلاثة أمتار. لم ينتظر رأي دياب ولا إشارته ولا مشورة نفسه، وقف على الحائط والمياه تتقاطر منه، وملابسه ملتصقة بجلده، مرجح يديه إلى الأمام والخلف تأهبًا للقفز...

ـ لا لا يا عاشور لا تقفز.

ـ توقف يا عاشور المياه عميقة لا لا لا.

لم تصل التحذيرات إلى سمعه وعقله.. أخذه حماسه وثقة في نفسه وتهوره، قفز عاشور يريد قطع الجابية فلم يتجاوز النقطة التي قفز فيها، ولم يظهر منه إلَّا يداه، قفز سَاسِي ودياب وراءه بلا تخطيط ولا تفكير، نزل دياب مباشرة تحت عاشور ليقف على الأرضية ويحاول دفعه، فيما بقي سَاسِي في الأعلى ليسحب عاشور إلى الحائط، لم يفكرا في الخطة ولكنها جاءت هبة من الله عز وجل ليُكْتَبَ لعاشور العمر الجديد بعد أن كان بينه وبين الموت الثواني المعدودة.

أُخْرِجَ عاشور، جلسوا جميعًا بالقرب منه يُدَلُّونَ سيقانهم في الجابية، ولكن لم تكن لهم صيحات طرزانية هذه المرة فقد كانوا يبكون وينوحون على الصديق الذي كاد يفارقهم، وينقلب البكاء ضحكا هستيريا، ثم بكاء حتى للملموا ملابسهم، وأعطوا الكلب المبكبكة، وغسلوا الطنجرة، وغادروا عينا تضحك وعينا تبكي، ولم يحصل سَاسِي على دروسه في التدخين ولا الغطس، أما عاشور فظل يصارع رهاب المياه.

في الحيـاة هنالـك أشـياء نعرفهـا وأخرى نجهلهـا وما بينهما الكثير مـن الأبواب علينا أن نـدخلها.

جيم موريوس

(٣) (البُرْعِي)

بعد أن فَرَّ عمَّار الذي هو أنا من الغرنوق ووجد نفسه تحت أقدام حمار المزرعة لم يُطِلْ البقاءَ تحتَ أقدامِ (حُومَاي).

شـعرتُ أن حوماي هو منقذي مـن الغرنوق أو العنقاء كما أراه، كانَ وقوفي في حوضِ ماءٍ رَاكِدٍ، وقَفْتُ. حَدَّقْتُ مَليًّا في عَيْنَيْ حُومَايْ، ثم نظرتُ لقَدَمَيَّ اللتين غَاصَتَا في الحوض؛ وإذا بالموجات تتولد على سـطح الماء من ساقيّ النحيلتين وتتوسـع، نَفَّضْتُ يَدي واتجهت إلى العَنُودِ وهي قناة ترابية لجر المياه للري، وكانت المياه تنسـاب بها بهدوء وتحمل معها بعض الأوراق والقشِّ والزبد الذي تحدثه بعض الدوامـات الصغيرة، حاولتُ إزالةَ ما عَلِقَ بـي مِنْ طِينٍ لأخفي آثار

انهزامي؛ فالعيون الضاحكة لن ترحمني ولن تعتقني لأكسب جولة أخــرى، ولكن ما من عَيْنٍ بالجِــوَارِ، آخر عينٍ لمحتني كانت لأخي عندمــا ذبح لي الأبلــق وبعدها اختفيت لألتهمــه وحدي، توجَّهْتُ للعَنُودِ، وقفت وســطها لأغسل طيني وبعضا مما لم يتم التحكم فيه، واســتدرت لأجد أخــي واقفا يحرر (حوماي) مــن قيده، وقد بدت عليه علامات الاستغراب من منظري.

ـ ما الذي (بَهْدَلَكَ) وجعلك بهذا المنظر المُقْرِفِ يا عَمَّار ؟

ـ لا شيء لا شيء.. وقعتُ في الحوضِ فتلطختُ بالطين.

ـ أمممممم. إذن انتبه لنفسك، وعلى مهلك في المرة القادمة.

مــا انْطَلَتْ عليه الحكايــة، وكنت أعلم أنه ســيظل ورائي حتى يعرف ما حصل ويكتشــف مأساة الحلاج. أبْرَمْتُ في نفسي أمرا وهو أن أُنكر مهما حدث. كَثُرَتْ الاستفزازات ضَحِكاً، وعَظُمَتْ العُطْيَاتُ وعوداً، وتلوّنت التهديدات ما بين دعابة صفراء وبين جد قاتم، فلم ينفع هذا ولا ذاك. انتصرت.. وقد شــغفني حبًــا ذلك الـ (حوماي) الذي أذهب عني ما أواجهه من إلحاح أخي على معرفة ســبب الطين وما تحت الطين.

حَــرَنَ (حُومَاي) ولم يشــأ أن يتخطى العنود أو الســاقية، على

الرغم من إصرار أخي بالسَّحْبِ مرة وبالدفع أخرى، إن (الكَرَطُونَ)[1] لا يمكــن أن يجره أو يحركــه إلَّا (حوماي)، أو حوماي آخر، دفَعْنَا الحمارَ بقوةٍ، سَــحَبْنَاهُ من حبله ولم يجد ذلك نفعا، حاولنا إفزاعه ولم يفــزع، وكأنه قد تلقــى تدريبات ضد أي محاولات آدمية أو غير آدمية، لم يبق إلَّا الإغراء، أحضرت شــيئا من برسيم، استعمل أخي العصا والجزرة. لم يؤت شيء ثماره مع هذا العنيد العتي.

انتصــر الحمار، وبدت علــى وجهه علامات الرضا عن نفســه، وكأنــه يقول في نفســه: (ما أغبى هــذا الآدمي وما أضعفــه وما أقلَّ حيلتَــه، حِمَــارٌ أَنْــتَ أيُّها الآدَمِــيُّ). وكأن أخي اســتمع إلى كلام (حوماي) فتركه حيث هو، ربطه في شــجرة رمان إلى حين، بعدها رجعنا إلى باقي الأسرة وأخبرهم أخي بما حدث.

ـ لقد حَرَنَ الحِمَارُ.

ابتســم أبي وقال: إنه يريد أن يحصل له ما حصل لحمار الحاج (مهــدي). الحاج مهدي كان عصبيا، منهجــه العِنَاد، وقد حَرَنَ به حمــارُه في إحــدى الطرق، فحــاول أن يرجعه عن قــرارِ الحَرْنِ فلم

(١) الكرطون: هو العربة التي يجرها الحمار.

يستطع ،فما كان منه إلَّا أن رماه في بئر مهملة ورجع راجلاً إلى القرية.

ومما أخبرنا به أبي أن أحدهم كان أكثر عصبية من الحاج مهدي؛ فقد قطع أُذُنَيِّ الحمارِ (بالمَحَشَّة) حين حَرَنَ ورفض أن يمشي. ونحن نتحدث عن مواقف الحَرْنِ كنت أنظر من بعيد ما بين النخيل والأشجار إلى الحمار حوماي، ولسُت في شك من أنه يستمع الآن لمآسي بَني شَعْرَتِهِ، في الوقت الذي يزدادُ حَنَقُهُ عَلى بَني جِلْدَتِنا.

دخلتُ الغرفة ونظَّفْتُ ما علق بجسمي، غيرتُ ملابسي، خرجتُ واستلقيتُ على ظهري بجانبِ أخي الذي كان كذلك مستلقيا على ظهره رافعا أحد ساقيه على ركبته، بدأ يُقَلبُ المَجَلة الأولى التي رأيتُها في حياتي، كانتْ مجلة الأمَل للأطفالِ، في أعدادها الأوائل، تصفح أخي أوراقها، كان يقرأ العناوين، ويمرُّ على المواضيع القصيرة، ويتوقف عند النكت والفكاهات فيضحك ويضحك من حولَه، وأضحكُ معهم ولا أدري لما يضحكون، إلى أن وصل إلى صفحة نادي الأصدقاء، فأخذ يقرأ أسماءهم، حتى وصل إلى اسمٍ لم يستقمْ حينَها جَرسُه الموسيقي في أذني وهو: (أسامة عبد الرزاق البُرْعِي) نظرت بحِدَّةٍ إلى أخي ظناً

مني أنه كان يمازِحُني ويقصِدُنِي بذلكَ الاسم الغريب، فلما رَآني قَدْ تَغَيَّرتُ وامْتَدَّت شفتَاي واقترنَ حَاجِبَاي أَكَّدَ مَقُولَتَه لي:

ـ نعم..نعم.. أساااااامة عبد الرزاااااق البُرْعِي.

وقد كان أخي يبحث عن أي شيء يغيظني به، خاصة عندما لم يستطع فك شفرة الطين، وما زاد غيظي أنه أخذ يغني بما يشبه المجرودة أو الشتاوة[1] قائلا:

ـ بُرْعِي البَطَّةْ... لا يْتَحَشَّمْ... لا يْتَغَطَّى.

انتفضتُ وثُرْتُ في وجهه وضربتُ بيدي وبرجلي الأرضَ ولم أتوقفْ عن هذا حتى قام وذهبَ بَعيدا. انتصرتُ ولو للحظَةٍ عليه، لكنه رجع وفي يده قِشْرَةُ رُمَّانٍ، دخل الحجرة، لحقته، نظر إلي بابتسامة سخرية وهو يرفع حاجبيه ويرقصهما ثم كتب بالقشرة على الحائط وبخَطٍّ كبير (أسامة عبد الرزاق البرعي).

خرجت من بينهم أبكي وأَرْكُلُ كلَّ ما كان أمامي، سِرْتُ والتِّنِّينُ يُزَمْجِرُ دَاخِلي، خرجتُ مُبرْطِمَا ومُقَطِّبَا غَاضِبَا، وقلتُ في نَفْسِي::

(١) المجرودة والشتاوة: نوع من القصائد الشعبية تُقال بطريقة معينة مع التصفيق، ذات وزن خفيف.

إنَّــه لَنْ يُقَدِّرَنِي وَلَــنْ يَفْهَمَني إلَّا الحِمَارُ (حُومَــاي). ذهبت إليه، وصَلْتُهُ فَوَجَدْتُهُ قَدْ قَطَعَ الحَبْلَ وَقَفَزَ العَنُودَ السَّاقِيَةَ مُنْتَظِراً أخِي.

عَرَفْتُ حينها أَنَّ (حُوماي) يَمتلكُ سَمْعَا قَوِيًّا.

لا تتوقـف عن الابتسـام حتـى وإن كنت حزينا فلربما فُتن أحد بابتسامتك

غابرييل غارسيا ماركيز

(٤) عشق سَاسِي

ساسي، ذلك الفتى النحيل جدا، ذو البنية الجسدية الضعيفة، وصاحب الملامـح الأنثوية، بصوته الهادئ الرقيـق وبعينيه اللتين خرجتا من العسلية ولم تصلا إلى الاخضرار التام، فيهما لَمْعةٌ توحي بكَظْم مَشَـاعرٍ وأحْزانٍ ، وأسـلوبه الذي لم يَنْضُجْ بَعْدُ لكنَّه يُشْعِرُكَ بأنه قد تَمرَّس وتَدَرَّبَ في مدرسـة نِزَار قَبَّانِي، ولكنْ أَنْ يَتَحَدثَ مَعَ شِـيرِي لَهْوَ أَشَـدُّ اختِبار وبَلاءٍ، ومما يُطْلَقُ عليه: (دَخَلَ عَلى جَبَلٍ بِقَادُومَةٍ).

شِـيرِي هي ابْنةُ نَصَّار زَهْوَة، لُبْنَاني يعمل في حفرِ الآبار، مَثَّلتْ شـيري الحلم الـوردي، المتربع على عيني سَاسِـي الحالمتين، تكاد ورْدات الجوري تتخلى عن أغصانها وتطير لتصنع له تاجَ ودٍ وجنونٍ

بهـــا، يكَابدُ الألم والمعاناة دون معـــين وداعم، ولا يظهر عليه ذلك، فتراه مرحا في كل أوقاته.

ليس في الأمـــر إلَّا بعض نظرات خجولة تُســـرقُ متى كتبَ المعلمُ على الســـبورة، أو عند المَقْصَفِ حينما تتشابك أيادي الطلاب لتنهبَ ذلك الســـندوتش، ولكن المساء لا يكاد يصفو إلَّا بالتأمل في ملكوت الله وصنعه الذي لا يراه سَاسِي إلَّا في خَدَّي شيري وشفتيها.

ومع هذا كله لا يكاد يضرب الجرس حتى ينطلق سَاسِـــي منضما إلى دياب وعاشـــور، صديقيه الذين لا يزالا يتحدثان عن موقف غرق عاشور وإنقاذه، وهذا مما قلل من حظ المدرسة في نفس سَاسِي، ولولا شـــيري لما ذهب أصلا إلى المدرســـة لـــو وافق أهله علـــى تركه لمقاعد الدراســـة، التدخين همه الشـــاغل، دياب مثله الأعلى فيه، المدرسة وإن كانت تحمل له دفء المشـــاعر إلَّا أنها تأخذُ نصفَ يومِه، لذا لم يُطِقْ المدرســـة، وقد عَبَّرَ عن هذا لصديقه عَاشُـــور في فترة الاستراحة حين قال له: (أتعرف ؟ أنا لا أحب المدرســـة) صادفت هذه العبارة مرور أحد المعلمين فالتقطها، حَمَلَها المعلم بين يديه إلى المدير رَأْسَاً.

تم الاستدعاء فورا، أُحْضِرَ المتهمُ أو الجاني، كانت الإدارة مظلمة، دافئة، غطت جدرانها الســـتائر، فلا يكاد يســـمع فيها الصوت، في

إحدى زواياها طاولة يتم إعداد الشـاي عليها، وفي الزاوية الأخرى التي خلف الباب مجسم لهيكل عظمي بالحجم الطبيعي للإنسان، لا تـراه إلّا إذا أغلقت الباب، حينهـا تعرف أنك احتجزت في نفق مع مومياء. بدأ التحقيق على الفور، قال المدير:

ـ تكلم تكلم يا سَاسِي. لماذا قلت أنك لا تحب المدرسة ؟

ـ لأني لا أحبها.

ـ أها.... ولماذا يا ابني لا تحبها ؟

لم تكـن الإجابة جاهزة ولا توجد الثقة التي تدفع إلى الإجابة، فكان الجوابُ ضِمنيًّا عندَ المديرِ ولَمْ يتوقعْ سَاسِـي أن الإدانَةَ قَدْ تَمَّتْ وأن الحكم قد أصدره المُديرِ.

ـ يا مُعَلمُ.. أَحْضِرْ (الفَلَقَةَ)[1].

سمع ساسـي طلبَ المديرِ إحضـار أداة العقوبة، ومع ذلك ظن أنه ربما يكون نوعا من التهديد أو أنه أسلوب تحقيقٍ لا غير.

أُلْقِـيَ سَاسِـي أرضًا، وُضِعَتْ القدمـان داخلَ الفَلقَـةِ، كان المديرُ

(١) الفلقـة: عصا غليظة بها حبل، يحيـط الحبل بالرجلين فيثبتهما ثم تضربا بعصا أخرى.

ممســكا العصا من جهة قدم سَاسِــي اليمنى وأمســك المعلم اليسرى، وتهتز العصا وتتوعد وهي في يمنى المدير.

حدثته نفســه بأنه تهديد فقط. لا يمكن أن يعطوني (فلقة) لأني لم أفعل شــيئا يستوجبها، لم أسرقْ، لم أكذبْ، وقد كتبتُ واجبي، وقلمــت أظفاري، وقلت للأســتاذ صباح الخــير، ولم أضع يدي على سيارة المدير.

لم يكمل سَاسِــي هذه التخمينات حتــى ارتفعت يد المدير لتعلن بدء القصاص. الصراخ ولا شيء غيره، فتحَ أحدُ المعلمين البابَ فوجد ساســي يصرخ ويتلوى مثل ثعبان، أغلقَ ذلكَ المعلمُ البابَ في الثانية نفســها وذهب، ربما حمد الله على أنه لم يكنْ تلميذا وفي هذا الموقف بالــذات، المعلم الواشــي كانَ يُحْكِمُ قَبْضَتَهُ على طــرف الفلقة مُبْعِدا رأسَهُ إلى الخَلْفِ خَوفَ أنْ تُصِيبَه العَصَا، والمديرُ يصدرُ أصواتا تُرَافِقُ كُلَّ جَلْــدَةٍ، هممممم هممممم هممممم، وَسَاسِــي يَتَمَلْمَــلُ على ظَهْرِهِ وأَكْتَافِهِ، يرفعُ مؤخِرَتَه فيرتفع ظَهْرُهُ وَأكتافُه ثم يَهْوِي إلى الأرْضِ، فهــو لا يعرف مَصْدَر آلامِــهِ؛ فالعصا واحدة على الرجلين والأخرى على الأردافِ، وربَّما وَصَلَتْ بَعْضُها لِسَاقَيِّ ذلكَ الوَاشِي الفتان، ويدا سَاسِــي تتناوبان على ساقي المدير وساقَي مســاعِدِهِ، وأحيانا يجمع

ملابسَــه فِي فَمِهِ ليخفف الألمَ بالعَــض، لكنه ينفجرُ صارخا ومُلَوِّحَا بيــدِهِ إلى أعْلى في وجْهِ المدير والواشــي قائلا بأعلى صوته: خَلَاص يا أُســتاذ خلاص.. (شَــعْفَةْ يَا دَاوُدْ مَعَادِشْ نَعَاوُدْ).... خلاص أُحبُّها خلاص أُحِبُّها، والله العظيم أُحِبُّهَا.

انتهى القصاص وحَمَلَ حِذَاءَهُ في يَدِه ولمْ يســتطعْ أن يَلْبَسَهُ، سَارَ حَافِيَــا في المَمَرِّ، ولما وَصَــل الفصلَ جَلَسَ خارجــا بالقُرب من الباب ولَبِــسَ الحِــذَاءَ عَلَى آلامِهِ، دَخَــلَ الفَصْلَ، وكَانَ الطــلابُ وَقْتَهَا قَدْ رَجَعُوا من الاسْــتَراحَة وجَلسوا في مَقَاعِدِهم، دَخَلَ سَاسِي وهو يُتَمْتِمُ بصوتٍ مَسْــمُوع: (خلاص أُحِبُّها.. خلاص أُحِبُّها)، ضَحِكَ الطُّلابُ عَلَيْهِ في اسْــتِحْيَاء، لَقَدْ فَهِمَ الجميعُ مَا حَدَثَ لِسَاسِــي في الإدارة إلَّا شِيرِي فَهْيَ كَانَتْ تَظُنُّ أَنَّهُ يَقْصِدُهَا هِيَ.

إذا أردت النجاح عليك أن تحترم قاعدة: لا تكذب على نفسك أبدًا.

باولو كويلر

(٥) لا تخدع نفسك

انتظـرتُ حتى خرجَ أخي إلى عمله لكي أبدأ يومي الجديد الذي لا يختلف عن سابقه إلَّا بما تجود بـه عبقريةُ الشقاوةِ و(الشَّطَانَةِ)، في تلـك الأيام كان مبيـت العائلة في بيت المزرعـة، وهو عبارة عن غرفتين، وصالة، ومطبخ، وما يشبه دورة المياه.

خرجت أجري وأتشـقلبُ وأتعلق في أغصان شـجرة (السـرول) العملاقـة التي بلغ محيطها أكثر من أربعة أمتار، وأتحاشـى طبعا المـكان الذي تعرضتُ فيه للدغة العقـرب، انتهزتُ فرصة بقاء أمي بجانب خالـي الذي قضى الليلـة معنا، وكانت تحيـط به أخواتي الكبار، فتتقربُ إليه واحدة،وتتعارك معه الأخرى كعادتها، بينما ترتب غيرهما له مقلبا من مقالبها.

أخذت على نفسي عهدا بأن أثِبَ من ذلك (الغُرْدِ) وهو الكثيب أو المرتفع الرملي الشاهق جدا بالنسبة لي، ينخر هذا المرتفع (كاشيك) أو جرار ليملأ الشاحنات التي تتعاقب عليه، فتترك عجلاتُها الطريق عبارةً عن مسحوقٍ من الطين تعجزُ السياراتُ أن تسيرَ فيه، ومع أولِ تيارٍ هوائي تصبحُ السماءُ حمراءَ بلونِ الأرضِ الطينيةِ التي قامتْ عليها المزرعة، فيما يَتْرُكُ الجرارُ حفرةً كبيرةً تُغْرِي مَنْ عَلى شَاكِلَتي بالوُثُبِ مِنْ الأعْلَى والخروجِ ومُعاودةِ الوثبِ مِرَارًا، وَهكَذا. مَكانُ الكثيب الرملي ليس ببعيد، قرابة الألف متر، ولكن أن أثب من هذا المرتفع لهو التحدي القادم أمامي لأسجل رقما جديدا في موسوعتي الخاصة، المرتفع يصل إلى أربعة أمتار أو خمسة مما دفعني للتردد،ولكن همتي و(الشطانة) كانتا أقوى، هما ثلاثة تحديات: الأول أن أقفز وأقول عبارة (أنا الآن في الهواء) وذلك قبل أن أصل الأرض، الثاني أن أقفز وألف على نفسي من اليمين إلى اليسار إلى أن أصل الأرض، الثالث أن أعد إلى العشرة وأنا في الهواء قبل ارتطامي بالأرض.

وصلت المكان وحددت منصة القفز ومكان الهبوط، قفزت القفزة الأولى وكم كان الوقت طويلا، فقلت العبارة كاملة، وخيل إلي أنني يمكن أن أقرأ سورة الإخلاص كاملةً.

وصل رجل الفضاء الأرض، تفقدت ساقيَّ وركبتي، التحدي الأول تم لصالحي، خرجت وتوجهت إلى المنصة ثانيةً لتنفيذ القفزة الثانية التي ينبغي أن أَبْرُمَ فيها، قفزت وبَرَمْتُ مثل اللولب على نفسي إلى أن ارتطمت بالأرض، وكان الارتطام شـديدا، فيبدو أن قدميَّ وصلتا الأرض وانغرسـتا ولا زال جسمي يدور، فالتوى كاحلي ولم أستطع الوقوف، فتم إلغاء القفزة الثالثة واكتفيت بتسـجيل رقمين، وبعد محاولات اسـتجمعت فيها ما تناثر من عزمي وهمتي ووقفت وعدت (أتعاكز) وأتمايل كشـيخ ثمانيني، أسـير وأجلس لأستريح مرارًا، أمر في طريقـي على نبات الغدَّام وأتناول بعض أوراقه الاسـطوانية المليئـة بالماء ذات الطعم شـديد المرارة، فألجـأ إلى نبات القُطَف ذي الأوراق المالحة، أستسيغ ملوحتها فأمضغ منها ورقات لأزيل مرارة الغدَّام، وعند جلوسـي بجانب نخلة لمحـت تلك الدجاجة التي لم نعد نراها لأيام، وإذا بها ترقد على بيضات لها، فأسَـرَّيْتُ ذلك في نفسـي لأخبر به أمي؛ لعل هذا الخـبر يُذهب غيظها أو ينقل الغيظ عني إلى تلك الدجاجة التي ربما تتسبب في موت أحد أفراد القبيلة، ذلك أن في تقاليدنا وفي قناعات كبار السن أن الدجاجة إذا رقدت على البيض وفقس وخرجت الصيصان فإن فردًا من أفراد القبيلة سيموت، لهذا لم أرَ مطلقا صوصا في بلدتنا.

وصلت وأخبرت أمي بالقصة ووشـيت بتلـك الدجاجة وحددت لأمـي النخلة ذات البيض. أسـعفتني أمي بالمـاء الدافئ والملح، ولم أستطع التحرك بعدها إلى أن حل المساء، وبعد أن جاء أخي ووجدني أحاول الوقوف شـجعني وحثني على المسير، وخرجت معه أتمشى شـيئًا فشـيئًا، على أطراف المزرعة وحدودها الخارجية، من بعيد بدا لي رجـل ليس بطبيعـي المظهر، وعند اختفائه بين الأشـجار وتعرجـات الطريق لم أسـتطع إخفـاء الرهبة الـتي اعترتني منه، فعيناه تشـع احمرارًا، رأسه أعمل فيه الصلع صنيعه، حيث أكل من جوانب الرأس وتـرك المقدمة، وباقي الرأس متروك على علاته، لم يزره المشط لشهور، أو أنه لم تخلله أسنان مشطٍ يومًا.

كان ذا نظرة مرعبة، ولكنه حينما ينظر لجهة أخرى تستشـف من عيونه بعض ألفة، ما تلبث أن تطير بمجرد رجوع عينيه عليك. عجل أخي بسؤالٍ ليخترق حاجز تلك الرهبة التي رآها بعينيّ.

ـ هل تعرف هذا الرجل يا عَمَّار؟

ـ لا.. لا أعرف من هو.

ـ أمممممم.. إن هذا الرجل سـيصبح أسـتاذك غدا في المدرسـة،

هههههههه، وسوف يضربك ويضربك إذا لم تقم بأداء الواجب، فغدًا أول يوم بالدراسة، وسوف تدخل الصف الأول.

قال أخي هذه العبارات ولم يدر بأنه أقال في نفسي الشهية للمدرسة.

أصبح همي كيف أتعامل مع هذا المعلم الذي يبدو أنه شديد ضيق الخلق، صعب المراس، على الرغم من الطيبة التي تلوح أحيانا في وجهه. أخاف أبي، أتحاشى إخوتي لفارق السن، خالي يكرهني وأنا متأكد من هذا، أستاذي سيضربني لا محالة كما أخبرني أخي، أوهام اجتمعت على ذي سبع سنين، صارعتها، وما كدت أتغلب على بعضها حتى رأيت الصباح قد حلَّ، واليوم الأول في المدرسة أطلَّ، وآخر يوم قبل المدرسة قد غاب بالوشاية بتلك الدجاجة.

جاء موعد المدرسة، أوصلني أخي وأدخلني إلى الممر لأجد نفسي بين حشد من الأشخاص، لم أر تجمعا يضم هذه السن من الأولاد والبنات، دخلت المدرسة ذات الثلاثة فصول، ولمحت من بعيد ما لم أود أن أراه، إنه ذلك الشخص الذي قابلناه البارحة، غير أن هيئته كانت مفعمة بالأناقة، ملابسه، شعره، لم يبق من هيئة المساء الأخير إلَّا عيناه اللتان لا تزالا تنطق بالحمرة، كدت أختنق

فزعا حين اقترب مني وسلم عليَّ، ثم انصرف وانصرف معه جزعي، ورجعت بعض الراحة التي انقشعت في الثواني التي سلم فيها.

مرَّ اليوم واليومان وزادت رقعة المدرسة اتساعا بمعرفتي بعض الأولاد. ذات استراحة تجمع التلاميذ ليأخذوا كيس التمر الذي يوزع على التلاميذ مجانا، يُجلب من منطقة الجفرة، نوعه (آبِلّ) أخذنا أكياسنا وانطلقنا للعب، وحدث أن اقترب أحدهم مني، وبدون إنذارٍ أو داعٍ صفعته على وجهه صفعة سمع بها كل من في الساحة، تسمر الجميع في مكانهم ونظروا إليَّ في مشهدٍ أشبه بلحظة استشهاد حمزة في (فيلم) الرسالة، بعد ما يقارب النصف دقيقة وبعد زوال الصدمة انفجر التلميذ بكاءً، وحضر أحد المعلمين واقتادني إلى الإدارة متلبسًا بجريمتي فالشهود لا يحصون، والأثر والدليل واضح على خد التلميذ.

سألني المدير:

ـ لماذا صفعته ؟

لم أتكلم.. لأني أنا نفسي لا أعرف لماذا صفعته.

ـ تكلم... لماذا صفعت زميلك ؟

ـ أاااااااااا.... صفعته لأنه سمح لذلك التلميذ باللعب معنا.

إجابــة اخترعتها كي لا تســلم الورقة فارغــة، حكم المدير عليَّ بثماني ضربات على يــدي الصغيرتين، بحث عن عصا لينفذ الحكم فلم يجد بقربه، أخذ (فرجار) السبورة الكبير ونفذ به الحكم.

استمرت الأيام والشــهور في العبور أمام عيني، وانتهت السنة ولم أصادف أن رأيت المعلم أحمر العينين مرة أخرى، ومرت الســنة الثانيــة ولم أره، حتــى إذا دخلنــا الفصل في الصــف الثالث إذا هو يفتح الباب ويدخــل.. هنا صمت الزمان، أصبحت حركات التلاميذ في تخيلــي بلا أصوات، اختفى الصوت للحظات وعيني في عينيه، لم أستطع إبعادهما.

دخل وأمسك الطباشيرة وكتب التاريخ على السبورة: ؟/؟/١٩٧٨ وعرف بنفسه.

ـ أنا المعلم عبد الحكيم، وســوف أكون معكم طوال السنة لأعلمكم اللغة العربية.

ســرعان ما حلت الأريحية في الفصل، واكتشفنا أنه إنسان وديع لا كمــا يظهر للوهلة الأولى، وقد صرت أشــعر بقربه، وأحس أنني الوحيد الذي يعرفه، ذلك بســبب لقائي به قبل سنتين. كان يعلمنا

اللغــة العربيــة، وفي إحدى الحصــص أملى علينا بعــض الكلمات الصعبة، وقد أخطأت في بعضها، وقف وكتب على السبورة الكلمات التي توقع أننا أخطأنا فيها، وطلب منا أن لا نصحح الخطأ من تلقاء أنفسنا حتى يمر علينا تلميذًا تلميذًا بنفسه.

لم أشــأ أن يرى أخطائــي فقمت بتصحيح الخطــأ، ولكن المحاة فضحتني، فقد تركت أثرًا واضحًا، ومر الأستاذ سائلاً إياي:

ـ هل أصلحت الخطأ يا عَمَّار ؟

ـ لا يا أستاذ لم أصلحه.

كرر ثانيةً:

ـ هل أصلحت الخطأ يا عَمَّار ؟

ـ لا لا يا أستاذ أنا متأكد.. لم أصلحه.

نظر إليَّ مليا ثم قال:

(يا عَمَّار لا تخدع نفسك)

شــعرت بالألم ذاته الذي خلّفه (الفرجار) على يدي يوم صفعت زميلي، ولكنه هذه المرة في صدري.

انتهت السنة الثالثة وغيرها إلى أن أخبرنا جارنا ذات يوم أن الأستاذ عبد الحكيم قد توفاه الله. حزنت كثيرا، وكانت لكلماته أشد الوقع في نفسي، ولا زالت إلى هذه الأثناء ترن، ولازلْتُ كلما فتحت كتابا وجدتُ صورةَ الأستاذ عبد الحكيم في صفحة ذلك الكتاب، وتحتها عبارة: (لا تخدع نفسك).

ليست العظمة في أن لا تسقط أبدًا، العظمة أن تنهض كلما سقطت.

كونفوشيوس

(٦) فتوة

عــادة ما يقاطع دياب محدثه ليبدي رأيه قبل أن ينتهي المتحدث مــن كلامه، عادةً ورثها مــن أبيه الذي كان خطيبــا وواعظًا بجامع البلــدة، كما ورث عن أبيه قوة الشــخصية متأثراً كثيرا بشــخصية صديق والده الحاج (حسن العابد) صانع الحُصُر، الذي يحيك ببراعة فائقــة من الديس حصيرا، وأضاف لمســته الجمالية بابتكاره نســقا مــن النظم أصبح علامــة على صنعته وحرفيته، حســن العابد الذي تمزج شخصيته بين حكمة الأجداد ودعابة الآباء مع انفتاح الأبناء؛ فأهلت هذه الخبرات المتنوعة (دياب) لأن يكون القائد في مجموعته بالفطــرة، وقد كان له ذلك، وتمت البيعــة له، إلَّا من أحدهم، وكم كان محظوظًا؛ لأن دياب كان يعاني في ذلك اليوم من كدمات وإصابات إثر معركة خاسرة ضد عصابة فتيان تعرضت له في المدينة.

ـ خاسرة تلك المعركة.. أتعلمون لماذا؟

ـ لماذا يا دياب ؟

ـ لأني لم أُخَرِّبْ وجْهَ ذلك (البطة) المتعجرف.. رئيسهم، كنت سأفعل ذلك بسكينه الذي أخذته منه، لولا أن الناس قاموا بفض المعركة.

كانوا ثلاثة صبيان، لكنه حقق نصرًا برغم كدماته وعينه المزرقة وآهاته الفجائية وغير الإرادية، تغيرت نظرة ذلك الشخص الرافض للبيعة فبايع دياب مباشرة بضرب يديهما ببعض. ولا زالت هذه الرفقة تحذر دياب من غدر (البطة) حتى أخذ بتحذيرهم مأخذ الجد، فمنذ ذلك الوقت لا يخرج دياب إلَّا متأبطاً (كِمِّيَّتَه)[1] التي ألح على صديقه إسحاق (التشادي) بأخذها، وقد اشترط إسحاق أن يحافظ عليها وأن لا يبيعها؛ لأنها ذات تاريخ. أبرز دياب شفته السفلى مستغرباً.

ـ وأي تاريخ يا إسحاق (لكمية) صدئة، حتى الغمد ليس معها!؟

(١) الكِمِّيَّة: هي نوع من السلاح الأبيض كالسكين، لها حدان، وليست مثنية من أعلاها كالخنجر اليمني، ولا يمشي أهل الصحراء بدونها مطلقاً، وتسمى (شبرية) في الشام وفي بعض الدول كما في ليبيا أيضًا.

ـ لا يا دياب.. ليس لها تاريخ سياسـي.. لكن لها قصة، فهي من بيت عمي، ولست أدري هل هي لعمي أم أنها ليعقوب ابن عمي الذي مات مقتولاً..

ـ مقتووووولا ؟ من قتله! ؟

ـ قتله عمي... أبوه.

تعجب دياب وشخص بعينيه ملقيا ما أوتي من سمعٍ لإسحاق وهو يسرد قصة المقتول ابن عمه.

ذات صيف كان يعقوب ابن عمي مسـافرا مـع والده على ناقة، يتبعانها أغلب الأحيان،وفي الوقت نفسه كانت تتبعهم لبوة مترصدة إياهم؛ علها تغنم بأحد الثلاثة، كانت اللبوة تحسب لهم خطواتهم وأنفاسهم، وظلت وراءهم عن بعد، وكأنها تنتظر رِدَاءً من الليل، أو غفلـةَ من نهار، وعرف الوالد بخبرته أنها لن تعتقهم، ولا يفصلها عن الفتك بهم إلَّا المغيب، فقرر القيام بضربة استباقية لها، ليقلب ما تبقى من ضوء النهار لصالحه؛ فيجعلها على الغداء قبل أن تجعلهم هي على العشـاء، فاختار ذلك (الكاف)[1] وجعل الناقة طُعْمًا لها،

(١) الكاف: هو الجبلُ عند أهل الصحراء وشبه الصحراء.

بَرَّكها في مكان مناسب واختبأ منتظراً اللبوة، وأمر ابنه يعقوب بأن يختبئ كذلك وأعطاه البندقية، وأمره في حال سمع مناداته أو سمع صوت اللبوة وهو يصارعها أن يظهر ويطلق النار على اللبوة.

ابتلعت حليلة الأسد الطعم، واقتربت من الناقة، فظهر الوالد واشتبك معها وعَلَت الأصوات، مرة بالزئير ومرة بصراخ الوالد: يا يعقووووووب يا يعقووووووب ، وبالفعل أتى ولده يعقوب لكي يطلق النار على اللبوة، لكنه لما رأى الموقف والدماء والنقع الذي أثير خانته الشجاعة وارتبك وولى هاربا تاركا أباه يصارع اللبوة والموت، غير أن والده تمكن من اللبوة وقتلها (بالكِمِّيَّة) بعد صراع شديد، ماتت اللبوة وركب الوالد الناقة وواصل المسير، ولما أن وجد ابنه أخذ منه البندقية، وفي لحظة انفعال وخيبة أطلق على ابنه النار جزاء جبنه.

خرج والد يعقوب من هذه المعركة بيدٍ مشوهة من عضة اللبوة، ولقد تذكر دياب أنه شاهد تلك اليد المشوهة من قبل، فزاد ارتباطه بعد ذلك بهذه (الكِمِّيَّة)؛ كونها (كِمِّيَّة) بطلٍ قاتَل لبوة وتمكن منها، أو (كِمِّيَّة) جبانٍ لا يستحق الحياة فكلفه الجبن حياته.

هذه التجارب التي عاشها دياب جعلت منه مشروع بطل، غير

أن بطولتــه كانت في أغلــب الأحيان على (الناقــة الضعيفة)، ولعل دياب بذلك أخذ بإجابة عنترة عندما ســألوه: كيف تبطش بالأبطال والفرســان وتقتلهــم ولا يقتلونــك ؟ أجابهم: أأتي علــى الضعيف فأضربــه ضربة يطــير منها قلب القوي فأجهــز عليه، وليس الأمر بذلك الشــائك المعقد، ولكنه يظهر تصرفات ربما لا تتناسب مع من لم يتعد السادسة عشرة من عمره، وعلى هذا النحو سار دياب يوسع مملكته كل يوم، ويضيف إلى قائمته جديدا كل جديد من الأيام، ولا زالت تعبث أصابعه بأنفه كلما اســتراح عقله من التفكير في ما يضر ولا يســر، وكأن أنجما حُلِبَتْ الليلة فشــرب ما آتت. حتى وصل به الأمر إلى الاعتداء على سَاسِــي، وضربــه حتى بدت نهايته للعيان، وكادت روحه أن تخرج سالمة أو غير سالمة، وتعرض أيضًا إلى عاشور الــذي أبدى له ما كان مخفيا في شــخصيته، فقد كاد الســحر ينقلب على هاروت، فبدأت سلســلة دياب في التفــكك حلقة فحلقة، حتى حمــل على ظهره اغترابه بــين أقرانه، وبدأت عينــاه في الاحمرار لأشــياء يجهلها أترابه، فاستنكر الجميع صنائعه، وساءت في وسط المراهقين سمعته، ولا زال به بعض من طيبة آبائه، وشيء من دعابة حائك الديس حســن العابد، ولكنهم نبذوه على الأقل من مجالسهم وحرموه من بعض الصدقات من شفاههم وعيونهم.

سألني دياب ذات يوم.

ـ لماذا يا عَمَّار تغير الجميع معي ؟ أنا أعلم أني لست أذكاهم ولا أكبرهم ولا أغناهم، ولكني فرد منهم.

ـ لا عليك يا دياب. هم أهلك وناسك، ومهما يكن فأنت جزء منهم، وإن رأيت منهم تغيرا فلأنهم رأوا منك ما لا يعجبهم. طبعًا في نظرهم هم.

ابتسامة صفراء، تدل على أنه لم يقتنع.

إذا أردت أن تقهر القلق وتبدأ الحياة احص نعم الله عليك بدلاً من أن تحصي متاعبك.

ديل كارنيجي

(٧) تمنهنت

انطلــق الحاج رمضان بعــد أن تم تقديم وجبــة الإفطار إلى عامة الضيــوف، انطلق ليبحث عن طريقة لحل مشــكلة تلك المرأة الضيفة على أهل داره، ولم يكن يعلم بما يحدث في منزله في بادئ الأمر؛ لأنه على مدى ثلاثة أيام كان ينام هو وأبناؤه الذكور في الزاوية[1] فالتقينا في الطريق، بادرته بالتحية، كان متجهمًا، رد التحية على مضض، الحاج رمضان هو والد عاشــور الذي كاد يغرق مرة في الجابية، لم أرَ من قبــل الحاج رمضان على هذه الحالــة، توحي تعابير وجهه أنه ســيقيء، سألني وكأنني أنا أحد الضباط الذين أقفلوا الطريق، سألني

(١) الزاويــة: هــو بيت الضيافــة والمناســبات الاجتماعية للرجــال، ويكون عادة في المسجد، ويحق لأي أحد استغلاله للمناسبات المختلفة.

وعيناه تتأهب للخروج من محجريها:

ـ هل فُتِحَت البوابة يا عَمَّار.

ـ لا يا عمي رمضان، ولكن يقال أنها إلى الفرج أقرب.

كانت الطريق إلى سبها قد أغلقت من قِبَلِ الجيش والأجهزة الأمنية، ولم يسمح لأحد بالدخول إلى المدينة أو الخروج منها لأي سبب ومهما كانت الظروف، فالأمر كان من أعلى مستويات الدولة، والذي كان شائعًا أن ثمة متسللين إرهابيين قد دخلوا المدينة على حين غفلةٍ قادمين من إحدى دول الجوار، فقامت الدولة بالحجر المدني أو الحجر العسكري على غرار الحجر الصحي.

شهدت تمنهنت تلك الأيام اكتظاظا لم تشهده منذ بئرها الأول، فهي تمثل بوابة سبها الشمالية، والداخل إلى سبها من جهة الشمال والشمال الشرقي لابد وأن يمر بها. المسافرون القادمون من وسط ليبيا وشرقها يسلكون طريق الجفرة [1] مرورا بتمنهنت التي كانت بها بوابة من أشد البوابات آنذاك، ووسائل النقل كانت إما المركبات

(١) الجفرة: تبعد الجفرة عن سبها ثلاثمئة كيلومترا شمالاً، وتتكون من: سوكنة، هون، ودان، الفقهاء، زلة.

الخاصة أو أسطول من الحافلات الكبيرة المجهزة أفضل تجهيز، من تكييف وفيديو ومرطبات.

كانت تعرف بالنقل السريع، فتشعر عند ركوبها بنفس شعور الطائرة من الفخامة والراحة والارتفاع والسرعة. هبطت كل هذه الحافلات بما تحمل من أفراد وعائلات هبطت في مدخل سبها ببلدة تمنهنت، التي لا يتجاوز سكانها وقتها الألف والخمسمئة نسمة تقريبا، واحتشدت البلاد بمن لا يعرف أحدهم الآخر ولا تعرفهم هي. ولصغر البلدة وقربها من عاصمة الجنوب (سبها) لم يقدر أن يوجد بها فنادق ولا بيوت شباب، إلَّا ما يعرف بالزاوية، فاستُقبل الرجال والشباب ونزلوا بيت الضيافة (الزاوية) فيما توزعت النساء والأطفال على العائلات، المشهد في تلك الأيام إذا لم يوح بيوم الحشر فإنه يوحي بيوم الحج الأكبر عرفة.

لم نكن نرى أهلنا، لانشغال كل فرد بمهمة وواجب في تلك المحنة التي ألمت ونزلت بالمسافرين، كذلك عاشور لم ير أباه طيلة الأيام الماضية، وعندما التقيت به أخبرته أن أباه يحمل في عيونه مشكلة تؤرقه، وأني لم ألحظه بهذه العجلة والقلق مثل هذا اليوم.

من مشاهد القرية وحواراتها في تلك الأيام ما يشبه:

ـ هيا يا شباب أحضروا براميل المياه من السيارة.

ـ لم نجد فيها شيئاً.

ـ هل وزعت المياه والثلج على المنازل التي بها النساء والأطفال ؟

ـ نعـم وزعت.. تذكرت يا عمـي... عندنا ثلاجة في (القاراج)[1] بها براميل مياه مثلجة. سأحضرها.هيا خذ مفتاح السيارة من خالك وأوصلني.

هكذا جل المشاهد.

لم يعرف الحاج رمضان والد عاشور طريقة لحل المشكلة، فهنالك في بيته عائلة مسافرة، من أفراد هذه العائلة امرأة في أيامها الأخيرة مـن الحمل، والمسـتوصف الوحيد بالقرية ليس معـدا للولادة، ولا توجد قابلة في القرية، والنسـاء لم تعد تعرف أو تتقن أمور التوليد كما كانت تعرفها الجدات اللاتي لم يبق منهن من بقيت لها ذاكرة.

ـ أن تموت هذه المرأة في منزلنا لهو أمر لا ينذر بخير.

ـ الوصول إلى سبها أصبح من المستحيل يا امرأة.

(١) القاراج: مكان في المنزل توضع فيه سيارة العائلة.

ـ ولكــن هنالك أمل يلوح، لقد تم تهريب أحد كبار الســن ووصل المستشفى ليجرى له غسيل كلى.

ذهب الحاج رمضان وابنه عاشــور إلى الرجــل الذي هرَّبه، وهو ضابط متقاعد منذ سنين.

ـ قيل لنا أنك قد أوصلت الرجل إلى المستشــفى للغســيل الكلوي، وبالتحديــد هربته من خلال الطــرق الزراعية. وأنــت تعرف أننا نســتقبل في بيتنا إحدى العائلات، ومن بينهم امرأة حامل، وقارب موعدها وهي بالكاد تتنفس.

ـ المشكلة يا حاج رمضان...

قاطعه:

ـ لا مشــكلة. المرأة ســتموت، وأنــت رجل عســكري قديم، لك مكانتك، وتستطيع التفاهم معهم.

ـ المشكلة كبيرة. أنا لم أستطع تهريب المريض من الطرق الزراعية ولا غيرها، ففيها خطورة، فربما يتم استهدافك عن طرق الخطأ. أنا حملت الرجل وذهبت للبوابة وأخبرت الجنود بمشكلته، وقالوا لي نحن لا مشــكلة عندنا إذا سمح لك الضابط، فذهبت إلى الضابط فقال

لا مشـكلة عنـدي إذا سمح لك من في البوابة الـتي بعدي، فاجتزته واجتـزت بوابتـين بنفـس الطريقـة، وأرجعتني البوابـة الثالثة بالتهديد والقوة، المسـكين لم يصل المستشفى، رجع إلى بيته ينتظر الفرج، فلا حل عندي. وما عليك إلَّا أن تستعين باللاتي في مقدورهن المساعدة.

رجع الحاج رمضان من الضابط المتقاعد يجر خيبته، عاقدا يديه وراء ظهره وقد اقترن حاجباه، وأخذت شفته السفلى في الارتعاش، بعث ابنه عاشـور ليخبر من بالبيـت أن لا يعولوا على أحد. بلغت الرسـالة أم عاشـور، أطرقت لحظات ثم قالت مخاطبة الجالسـات أمامها وفي صوتها هدوء:

ـ إن الأمر ليس باليسـير. صحيح أن هنالك من النسـاء من تضع مولودها دون مسـاعدة من أحـد، ولكن هذه النوعية من النسـاء لم يعد لها وجود، وليس في القرية قابلات إلَّا قابلات للكسـل والبورة. رفعت إحداهن نظرها لأم عاشور في تلميح بأنك أنت كذلك، فوجهت أم عاشور الكلام مباشرة لها:

ـ نعم أنا مثلكن، لم تعد لنا خبرة فنحل بها مشـكلاتنا. إن المرأة

الــتي تعجز عن تدبير أمورها لا تصلح لأن تكون ربة بيت. والطراز الأول من ربات البيوت انقرض مع آخر الجدات.

قطع الكلام صراخ حاد صدر من إحدى الغرف في البيت، وإذا بها تلك المرأة تصارع الموت ولا تملك لها النسوة ما تقدمه. في تلك الأثناء كان الشــباب في بيت الضيافة (الزاوية) يرتبون لاحتفال ديني على طريقة الصوفيــة، فتجمع أصحاب البنادير[1] وتنادى المريدون من كل صوب، وبدأت مراســم الافتتاح ببعض الضربــات المتناثرة على البنادير، للتأكد من جاهزيتها لخوض المعترك؛ فهي الوحيدة التي ستتحمل ما لا يتحمله الحاضرون.

وأعطيت إشارة البدء من أحدهم، كان الوحيد الواقف فيهم، وهو الشاوش، رجل بدين، أفطس الأنف، يلبس عباءة كعباءة إمام الحرم المكي، وعلى كتفيه قماش أخضر مزخرش بالذهبي، والشال الأبيض الناصع على رأســه يزيده هيبةً، يحمل مسبحة خشبية ذات حبات كبــيرة عن المعتاد، مقفلا يده على شــيء لم يتضح ما هو، وقد تلقى الإذن بنظرة وإيماءة من الشيخ رئيس المحفل.

(١) البنادير: جمع بندير وهو الدف.

كانت الحضرة[1] ساخنة كما يصفها المريدون، فقد أعلن الدُّف أن هذا اليوم هو يومه، فبايعه الزل[2] على استكمال الليلة إلى آخر مريد وصاحب هزؤ، حتى إن أحد الحاضرين كان من نيجيريا ولا يفقه من العربية إلَّا كما نفقه من لغة الواق واق، فلما سمع الدف والإيقاع الهادر الذي تهتز منه القلوب وترتعش الأحشاء تقدم ورقص على طريقته لا طريقة الصوفية، حتى أُنْهِكَ، فلما أكمل قال لهم:

ـ (ممكن بكرة دانص فيه)

كنتُ بين دفتي شوق: شوق الاستمتاع بالألحان التي مرجعها إلى الموشحات الأندلسية، بإيقاعاتها التي تدغدغ الرئتين فتنتشي الروح، وبين شوقٍ لحضور (فيلم) رعب، أعلم مسبقا بأحداثه وتفاصيله، وثمة طموح تجرأت على تكوينه وهى تجربة تلك الآلة التي تفعل في الشيوخ الأفاعيل، فتجعل من كانوا يعرفون بوقارهم وهيبتهم أخف وزنا وأقل هيبة، وتجعلهم مدعاة للضحك والسخرية، طبعا في السر، لأن من يثبت عليه الاستهزاء فإنه في أغلب الأحيان يتعرض

(١) الحضرة: هي حلقة الذكر التي يقوم بها الصوفية ويدخل فيها الدف وبعض الأدوات الأخرى.

(٢) الزل: إحدى الآلات الموسيقية المستخدمة في الاحتفالات الصوفية وهو عبارة عن قرصين نحاسيين يضربان ببعض.

لكســر الظهر بالدعاء عليه من الشيخ، وإذا كان من المحظوظين فإنه تحيط به مصيبةٌ ما يعاني منها شــهورا أو أعواما، هذا ما يشــاع في أوســاط الحاضرين، فــترى الرجل يغلي من الداخــل ضحكا، وتكاد وجناتــه تنفجر، وقد تجمع نصف دمــه في وجهه، ولا يجرؤ على إصــدار صوت، خوف مصيبــةٍ أو عقوبة فوريــة، والغريب أن هذه المصائــب أو العقوبات الإلهية تصيب أولئــك الذين تجاهلوا الوضوء كذلك، أو أنهم انتقــض وضوؤهم ولم يجددوه، والأكثر غرابة كيف يستطيع الشيخ أو أتباعه معرفة المتوضئ من المحدث.

اختبــار هذا الدف صاحــب الطاقة التي تنطلق منه فتســتقر في كبار الســن، فتجد الشيخ المســن يصلي في العادة وهو قاعد، وتراه في الحضرة يقفز على رجل واحــدة، ويقوم بحركات لو أن بطل جمباز قام بحركاته لجلس أسبوعا دون حراك.

لملمت أشــواقي وفضولي وأخذت أقترب خطوة خطوة، الحاضرون ملتفون جلوســا حول المحفل، وكلما نهض أحد جلست مكانه حتى دنــوت من الحلقة الأم. لم يغب عن هــذه الحضرة آكل الزجاج، ولا من يخز شدقه بالمِخْيَطِ، ولا ذاك الذي يقفز بثقله على (البندير) ولا يتمــزق، كل هذه الأعمال يبررها أصحابها بأنها برهان من الله على

ولايتهم التي خصهم وحدهم بها، ويَعُدها غيرُهم ضربات استباقية لمن تسول له نفسه الاستهزاء بأحدهم.

لا زالت الأفواج تأتي تباعا، ممن أتيحت لهم فرصة إضافة تجارب جديدة لحياتهم، ورأيت طائفة أخرى تقترب رويدا، يتقدمها حامل الرايــة، وكان أصحاب الدفوف في المؤخرة، ويتوسـطهم كبراؤهم، يؤمهــم رجل يبدو عليه أنه متعلق بعــامٍ قبل المئة، اقتربوا، أخلى المكان مجموعة من المريدين ليفسـحوا لهمٍ موضع قدم، ترنح بعضهم تفاعلا مع الإيقاع، جلسـوا مع بعض الهمهمات، رجعتُ بنظري إلى ذلك الرجل البدين ذي رتبة شاوش في النظام الصوفي، لم أتبين بعد ما الذي يخفيه بيده، وقد كان يمرر إناء للشرب على المريدين والمتابعين في الحلقة الأولى، بدءا بالشـيخ، وكلٌ منهم يرشف رشفة أو اثنتين ويعيده إلى الشـاوش أو يناوله للـذي بعده، لفت نظري رجل كان في الخلـف. بالقرب من الشـيخ كان يضع يده على رأسـه ويتمتم طول الوقت وعيناه تدمعان، وبين اللحظة والأخرى يهز رأسـه بسـرعة وعنف، فتظل شـفتاه تتحرك حتى بعد توقف رأسه، وبالقرب منه رجـل آخر يقرأ على أوعية للمياه، ولكن هذا لا يثير الرعب، وليس هو الشـيء الذي تمت الدعاية والترويج له، فمما انتشر بين الناس أنه في هذا اليوم سيلعب الشيخ بالسيف؛ أي سيضرب بالسيف بعض

المريدين، ولن يجد أكبر من هذه المناسبة عددا للحضور، ولا تنوعا في الشخصيات. لكن السيف لا يمكن أن يُقدَّمَ على نار هادئة، فلابد للحضرة أن تكون في أعلى درجات الحماسة، حتى لا يظهر العمل على أنه اعتيادي أو غير مشوق.

كنت ألمح بين الفينة والأخرى الحاج رمضان، ولا زال في نظري أنه سيقيء أو أنه، فملامح وجهه تزداد انقباضا.

سرحت بفكري وتخيلت أن الحاج رمضان بلغ به القيء مبلغه، وحاول الوقوف فلم يستطع، وأن أحد المريدين أحضر وعاء ليخرج فيه ما في معدته فلم يخرج شيء، وتخيلت أن بعض الرجال ساعدوه على الوقوف فوقف، وأراد أن يخرج فأمره الشاوش أن لا يخرج حتى يستأذن من الشيخ، وحين مثل أمام الشيخ انحنى ليستأذن منه فأخرج ما في بطنه على الشيخ، فأصدرت ضحكة بالكاد كتمتها، نظر لي من حولي فأتبعتها بكحة وهزة رأس ونحنحة، فانصرفت الأنظار.

وقف مجموعة من المريدين صفا، معهم بعض الحاضرين، وانضم إليهم ذلك الأفريقي بعد أن استراح، ومن هنا بدأت مشاهد الإثارة، فعندما توقفت ألسنة النار عن الوشاية بوجودها تقدم إليها زبانية

الجاوي والوشــق[1]، وضعوا فيها ما يغشــى الحاضريــن، وما يزيد المريدين حماســا ويطرد بقايا الشــياطين، وتقدم رجل مُسِنٌّ، نحيل كالقصب، شديد السواد، بيده منجل، حرك الجمر بعود ليتيح مكانا لما بيده، وضع المنجــل على الجمر وغادر، أخذ مكانه بالصف وأخذ يميــل مع المصطفين يمينــا وشمالا، لا زال ذلــك الرجل الذي خلف الشــيخ يهز رأســه ويتمتم، كنت ألحظه بطرف عيني، وكان مطرقا رأســه للأسفل لكن عينيه المغرورقتين دموعًا مثبتتان باتجاهي، مما أدخل القلق في نفسي، فجأة انطلق أحدهم من خلفي يتخبط بالجالسين قاصدا وسط الحلقة فتعثر بمن خلفي فكان وقوعه على ظهري، تمالك نفســه وتابع إلى الوســط وجثا على ركبتيه وأخذ يضرب صدره بيده بكل قوته ويكح ويصدر أصواتا

هعععع هعععع هعععع وكأنه قد غص بشــيء، ثم قذف من جوفــه قطعا من الجــاوي، كانت كبيرة، يصعــب عليه تخزينها في فمه، في اللحظة نفســها قفــز الرجل الذي كنت أراقبه بطرف عيني قفز إلى الوســط وأصبح يتلــوى ويرتعش حتى أخــرج من فمه رغوة

(١) الجاوي والوشق: مواد من الطبيعة تستعمل بخورا، الأول للصالحين والثاني لطرد الشياطين كما يعتقدون.

بيضـاء كرغوة الصابون، لم تتوقف عن الخروج حتى جاء الشـاوش البدين ووضع يده على رأس ذي الرغوة فهدأ بعدها.

و بعد أن حمـي الوطيس، وجاءت اللحظة، وجميعهم ينظر إلى الرجل الذي وضع المنجل في النار، ينظرون إليه وهو يُخْرِجُ المنجل من النار، يتوهج حمرة، يتقدم به لوسط الحلقة، مما أشخص الأبصار، وكادت القلـوب تتوقف هلعا عندما وضع المنجل على لسـانه، وأخذ يقلبه كما يقلب الطفل المثلجات، يلحس المنجل بلسـانه ويهز رأسه لأعلى وأسفل، ويشخص بعينيه ملتفتا يمينًا ويسارًا، محدقا بقوة في أعين الحضور الذين انقبضت وجوههم.

إن هذه العروض ليسـت موجهة بالضرورة إلى العامة، فالعامة من الحضور يكفيهم إثارة من يحمل سـيخا ويطرز به شدقيه، هذه البراهـين هي لمـن يمتلك مثلها من ذوي الرتب والمناصب في الوسـط الصوفي، هنا سيخرج الشيخ برهانه، أُحْضِرَ السيف، أخرج من غمده ببطء، أخذه الشـاوش البدين ومرره على بعض الحضور ليتأكدوا من مضاء حدَّيْه، وكنت قد تمنيت أن أتحسسه، تطاولت أعناق الحضور الواقفين من بعيد ليشـاهدوا ما سيفعله الشيخ، قَلَّبَ الشاوش عينيه في الجالسـين في الحلقتـين الأولى والثانية، بحثا عـن الفتيان، وقع

اختيــاره علــى اثنين، أحدهما صديقي سَاسِــي العاشــق ذي البنية الضعيفة، بَحَثَ الشاوش عن الثالث، طافت عيناه حتى استوقفتهما عيناي، فورا أنزلت عيني لحجري، لكن القدر أســبق. تقدم وأمسك بي، اقتادني إلى الوسط.

يــا لهذا الموقف، يا لهذه الليلة والحظ التعيس، ما الذي جاء بي إلى هنا. حدثتني نفســي بكل شر، ولم أفلح في طرد أي فكرة سيئة، تقلَّد الشــيخ ســيفه، كنت قد تمنيت أن أتحسس السيف. لم أدر أن أبواب السماء كانت مفتوحة ساعتها لكنت تمنيت غير ذلك، أوقف ثلاثتنا صفا وســط الحلقة أمام عيون الحاضرين، أنا في الوسط، وكان سَاسِــي من جهة الشــيخ فالبدء بسَاسِــي صديقي الذي اختاره القدر ليكون الأول، ارتحت قليلا لكوني لست المبتدأ به، على الأقل لأنظر ما سيفعل بالأول فأتدارك أمري، قُلتُ في نفسي: وهل سيقوى سَاسِي على الطعن بالســيف؟ وهل ستتمكن رقبته من مجابهة حدة السيف ؟ فهو سيف حقيقي ضخم.

لك الله يا سَاسِي.. هكذا حدثتني نفسي، لكن الحياة أغلى وأثمن من أن يُفرَّطَ فيها، فجأة أفلت سَاسِي من قبضة الشاوش وانطلق جريا في اتجاهــه، قفز الحلقتــين، ظل يجري فوق رؤوس الأشــهاد، ثم

اختفى بين الجموع. أما الفتى الآخر فقد بال على نفسه من الخوف، فأصبح نجسا لا يصح وجوده في هذه الحالة، تم استبعاده وأخرج من الحلقة الطاهرة، فلن يخاطر الشيخ مع نجس، بَقِيتُ أنا، مكرهٌ أخوك لا بطل.

الشاوش. أمسك أحدهم بي من الخلف مثبتا يديَّ خلف ظهري، وتقدم الشاوش ممسكاً بقميصي كاشفا عن بطني، تقدم الشيخ منتضيا سيفه، وكأني به يقول: لا نجوت إن نجا. أفقتُ على يدي أحدهم يسقيني ماء، تحسست بطني فإذا بها خط من أثر السيف مع قليل من الدم على الخط، علمتُ حينها أنني سأعيش طويلا. لحظات وأتى ذلك البدين الشاوش، وتبين لي أن الذي كان بيده كيس به بعض الرماد، أخذ منه القليل ووضعه على أثر السيف.

أما الحاج رمضان والد عاشور، فعندما بلغه اليأس من إيجاد حل للمرأة الضيفة ذات الحمل أسلم تصاريف الموقف لرب العباد، وألغى فكرة القيء، مؤكدًا على زوجته بالتصرف عن طريق المساعدة النسوية، وبينما هو جالس في الحضرة يمرجح رأسه يمينًا ويسارًا هائمًا في مرافئ الصالحين، يعيش اللحظة بقلبه؛ إذ بابن أخيه قد خالف جميع التقاليد والأعراف وانطلق متخبطا بالأرجل الممدودة

والرقــاب المعقودة مجتازًا العشــرات من المندهشــين لما يرون، حتى وصل الحلقة الأصغر.

ـ عمــي رمضان عمي رمضان. زوجتــك تريدك، زوجتك تريدك، قالت لك يجب أن تحضر الآن فورًا.

ـ لا باس.. ما بها.

ـ لا أعرف، لَكِنْ يُمكِنْ أن تكون تلك المرأة الشَّرقَاويَّةْ تحتضر، أو أنها ماتت لأنَّ أم عاشور تبكي وتبكي.

انطلق الحاج مسرعًا بلا إذن من أحد، واستغرب الحاضرون، ومن بينهم الحاج (برَيِّكْ) زوج الشرقاوية، فلحق به لشكه أن زوجته هي المقصودة.

البيت ليس ببعيد، يحتاج لعشــرة دقائق مشــيًا، ولكن الحشــد كبــير يكاد يكــون من القليل جــدا جدا أن تجد شــخصا من المنطقة يمكنك الاســتعانة به، أو أن تجد سيارة توصلك بسرعة، ربما يأخذ ذلك أكثر من الدقائق العشرة، فاغتنم الجميع دقائقهم وحثوا المسير وقد كانت الثواني أســرع منهم، والقدر أسبق، فقدَّر الله بوصولهم أن تتمســك المرأة بذراع أم عاشور وتعضها عضة الموت، بطاقة كاملة من فكَّيها، فصرخت أم عاشــور صرخةً حــادة وطويلة ببحة تتردد مع

طول الصيحة، ولو أن عاشور ابنها قد مات أمامها لما صرخت بأعلى من هذه الصرخة، فتسمر الرجلان: الحاج برَيِّكْ والحاج رمضان.

ولم يُحَرِّكْ قدميهما إلَّا صرخةٌ أخرى لمولود، وضعت المرأة، كانت أنثى. ولفرحة (بريــك) وزوجته بابنتهما وَرَدًّا للجميل كما يريانه سَمَّيا الطفلة باســم (تمنهنت)، وهي أول طفلة تحمل هذا الاســم، ولتخفيف الاسم نوديت (هنت).

إذا أردت شيئًا يتآمر الكون كله لمساعدتك على تحقيقه.

باولو كويلر

(٨) قبر عون

انقطعت صلة عاشــور بدياب، لم يعودا يتقابلان، وإن تقابلا لا يتحدثــان، وإن تحدثا يصعر أحدهما خده للآخر، كما زادت علاقة عاشــور بسَاسِي، فأصبحا متلازمين، فســنهما سن اكتشاف وفضول واسع وتشوق للتجارب الجديدة.

تتلألأ السماءُ في عينَيْ سَاسِي كلما وردت شيري لتنهل من فكره، وتلصــف صفحة المياه في ذاكرة عاشــور، فلا يفتأ يؤجل يوم انتصاره على مخاوفه، أما أنا فقد تلاشت صورة (حوماي) ولم يعد يثب أمامي في كل إغفاءة، انكسرت الجرة التي نخفي فيها أسرارنا عن أنفسنا، فبُحْنَــا بما في تفكير أي منا وخلدِهِ، والتقت أفكارنا على بحيرة قبر عون، فكما يحدثوننا عنها هي شــيء من الخيال، الرحلة لها كلها

مغامرات ومتعة، فقررنا خــوض التجربة، ولكل منا أحلامه، كان حلم عاشــور السباحة، سيحاول مجددا الانتصار على نفسه وخوض المياه بلا ذُعر، ولكي ينسى حادثة غرقه بين زملائه منذ سنين، أما حلم سَاسِــي ارتقى إلى العشق الســامي ولو من طرف واحدٍ، كما أنه كان يعاني من بقع بيضاء على جلده فجاء للاستشــفاء، أما أنا فكان حلمــي الأدرينالين، فالطريق الصحراوية مرعبة كما حدثونا، وهذا هو مبتغاي العيش في لحظات الرعب..

تبعد هذه البحيرة ما يقارب المئتين كيلومتر عن القرية، فالنقطة التي نعتــزم الخروج منها للبحيرة التي تقبع بــين الرمال تبعد ما يقارب المئة وخمســين كيلومترا، بقي خمســة وأربعــون كيلومترا داخل جبال الرمــال العظيمة، هنالك سنشــهد تدفق الإدرينالين، كثبان هائلة تأسرك الدهشة ويعتصرك الخوف.

حملنــا أحلامنــا وركبنا ســيارة أجــرة (بيجــو ٥٠٤) قاصدين تلــك المنطقة أو غيرهــا فنقاط الخروج متعددة، طبعًــا الطريق معبد حتى نقطة الخروج للبحيرة عبر الرمال، وكانت تلك أطول مســافة أقطعها، ولعلني لم أبعد كثيرا عن ذلك الشــيخ الطاعن في السن الذي يسكن على بعد مئتين كيلومترا عن سبها فسأله حفيده:

ـ كم من الزمن لم تذهب إلى سبها يا جدي.

ـ أنا لم أذهب من قبل إلى سبها.

فاستغرب من رده وقال له: هيا يا جدي سننطلق بك لترى مدينة سبها، وحينما قطعوا مسافة ثلاثين كيلومترا دُهِشَ الجدُّ من طول المسافة، وربما تفكر في حجم الأرض التي مر عليها، فقال:

ـ إيييييييه.. ما أكبرك يا خلق ربي.

ضحك الحفيد ولسان حاله يقول: وماذا رأيت منه يا جدي ؟

أخذت الرحلة ما يقارب الساعتين، وبوصولنا بدأنا في البحث عن سيارة دفع رباعي، تلك التي يقولون عنها أنها تلتهم الرمال. الأمر ممتع بالنسبة لي، مثير للأدرينالين، فالطريق وعرة، والسائقون يتفننون في إخافة الركاب، فالكثبان عالية جدا، وعند الهبوط تشعر باختلاف الضغط وفقدان الجاذبية للحظة، ومن بعدها تشعر بأن جوفك يختلط رئةً على أمعاء، وكم هم الذين أخرجوا ما بمعدتهم، وكم منهم من فقد وعيه، وكم من رجال ذوي شوارب يقف عليها الغراب يصيحون بأمهاتهم: (يَمَّا يَمَّا). وهذا ما شجعني لخوض التجربة. انطلقت (النيسان بترول) وبعد أمتار قليلة من دخول

الرمال نزل السائق وأفرغ جزءً من هواء الإطارات ليسهل السير أكثر على رباعية الدفع، فانطلقت (الحنَيْنَة) كما سماها سائقها معلنة القيامة الصغرى على كل راكب، الرمال ولا شيء غير الرمال، كثبان يصل ارتفاعها عشرات الأمتار إن لم يكن المئات خاصة بعد تراكمها على بعض السائق قد أقفل منافذ الهواء والضوء عن وجهه بـ (القشطة) أو العمامة على طريقة أهل الصحراء، مع النظارة السوداء التي تعكس صورتك عند رؤيتها، فكأنه يقول:

البحر من أمامكم والرمل من ورائكم، وكأنه يصرخ في وجوهنا (جَاتَكْ الموت يا تارك الصلاة)[1]، لم نسأل عن الضربات التي تلقيناها من سقف السيارة، ولا من اصطدام الحنك بالركبة، وكم كنا محظوظين عندما تلاقت سيارتنا بسيارة أخرى في أعلى السيف[2]، فلا أحد من سائقي السيارتين يرى الآخر، وعلى طول الطريق ما عليك إلَّا أن تدعو بأن لا تصطدم السيارة بأخرى في الأعلى؛ لأنه لا مجال للرؤية، السرعة عالية ولا اتزان للسيارة، فترتفع وتهبط، لا قرار، تكاد الروح تخرج، فتذكرت الرجال الذين يصرخون (أمي

(١) جاتك الموت: هي عبارة تقال إنذارًا بوقوع أمر خطير.
(٢) السيوف: قمم الكثبان الرملية لأنها على شكل حد السيف.

أمـــي) فعرفت أنهم لا يصرخـــون من قليل، غير أن سَاسِـــي أصابته هستيريا، جحظت عيناه واحمرت، وأصبح يصرخ:

ـ نزلنا.. نزلنا. يرحم واااااالدييييك.

إلى أن ظهرت البحيرة وأشـــرقت، كأنها زهرة بنفسج، أتى بنا الســـائق من الأعلى فظهرت البحيرة بشـــكل بديع، تَيَقَّنَّا أن السُّيَّاحَ عندما يأتون إليها كانوا يعلمون بسر جمالها ويدركون فُتونها.

الطريف أن عاشـــور عندما رأى الماء من الأعلى شـــهق شـــهقة لم أسمـــع أطول منها ولا أعمق، وكأن الماء قد وصل أذنيه وهو لا زال في السيارة. وقفت النيسان بترول ونزلنا، كانت الساعة الحادية عشرة صباحا، الشمس أخذت في الارتفاع حتى وصلت المنتصف تقريبا لكن الحرارة كانت لا توصف، ولا زلنا في بداية النهار، كنا نتحدث عن عجائب هذه البحيرة، كعدم استطاعة تحديد عمقها، وفي الحقيقة لم أقتنع؛ لأني في السابق شاهدت لقاءً تلفزيونيا أفاد أن فريقا علميا من جامعة ســـبها زار البحيرة وحدد عمقها بسبعة أمتار، لكن المعلومة الصحيحـــة هي أن لا أحـــد وصل قاعها، لأن المياه شـــديدة الكثافة، والملوحـــة أكثر من ملوحة مياه البحر بأضعـــاف، وقد كان في ذهننا

اختبـــار أمر ما، وهو غـــرق (البلك)[1]، فقد أخبرونـــا أن البلكة لا تغرق في بحيرة قبر عون، وكم دهشنا عندما جربنا ذلك، فهي تنزل لمســـافة خمسين سنتمتر وتبقى على هذا المستوى، أما سَاسِي فقد أتى بعلتـــه لعلمه أن ميـــاه قبرعون لها خاصية الشـــفاء لبعض الأمراض الجلدية، فهو مصاب بما يشبه البهق، أو هو البهق بعينه في منطقة من ذراعه، ودهشنا جميعًا باختفاء هذه البقع بعد نزوله للمياه، فقد أصبحت باللون الأحمر ثم اختفت نهائيًا.

خرجت بي الذاكرة من إحســـاس المكان الـــذي ينهال على رائيه بالحســـن والجمال، ومن الشمس التي أخذت تدفعنا إما لملازمة الظل أو ملازمـــة الميـــاه خرجت بي الذاكرة إلى يوم أتانـــا ببيتنا في القرية الطينية رجل لا أذكر ملامحه ولا أعرف اسمه، تذكرت أن أبي وأمي كانا ينتظرانه؛ لأنـــه كان في بلاد الدَّوْاَدَةِ[2]، وقد أتى وأحضر الدود معه، هذا الدود يشـــبه في شكله التمر المعجون، وبه مسامات وأشياء صغيرة مثل الأنابيب، ويستعمل للعلاج الشعبي، أذكر أن طعمه غير مقبول خاصة عند معرفة اسمه، يتم تناوله كإدام للعصيدة أو بالخبز

(١) البلك: البلكة هي قطعة اسمنتية تستعمل للبناء.

(٢) الدوادة: نسبة إلى البلاد التي يؤتى بالدود منها وهي قبرعون.

(الفُتَات)، كنت يومها أتهرب من الوجبات الرئيسية، لأني لا أريد أن أعيش دور (أبي قردان) في بحثه عن الدود والتهامه، وأكتفي فقط بما طالته يدي من خبز أو تمر، لم أدر أنه سيكون لي مغامرة في أرض الدوادة، فهذا الدود يجلب من بعد أمتار من مكان وقوفي في قبرعون، يُخرجُ ويُجففُ ويُباعُ أو يُهدى، وهذا الدود كما اتضح لي عبارة عن أحياء مائية صغيرة، ربما يتراكم بعضها على بعض بعد موتها.

أتاح لنا وجودنا بقبرعون فرصة رؤية التضاد ومفارقات الطبيعة، فالمياه توقف زحف الرمال التي تعلوها من أحد الجوانب بعشرات الأمتار، ومع ذلك لم تتمكن الرمال من دفن الماء ولم تزد عن حدها مترا، كما أتاح لنا فرصة استنشاق نسيم البحر في عمق الصحراء، وإن هذه الفرصة لن تتكرر لعاشور لتحقيق إنجازه، فالمياه هنا لم يسبق أن سجلت فيها حالة غرق من قبل، كما أخبرنا سكانها القلائل؛ فالملوحة الشديدة وكثافة الماء العالية تمنع أيا كان من أن ينزل بجسمه كاملا عشرة سنتمترات، فلا مجال للخوف ولا احتمالية للغرق، إن مجرد وقوفك على شطها والنخيل من يمينك ويسارك وأمامك يشعرك أنك تعيش إحدى مغامرات سندباد، ولا ينقص إلَّا خروج عفريت الرمال.

والأكثــر غرابة من خروج العفريت من الرمال هو أن تخرج المياه الحلــوة من الرمل إذا حفرت خارج المياه المالحة بشــبر فقط، يمكنك شرب هذه المياه، ولكنها تستعمل للاستحمام بعد مغادرة المياه، لأنه ستذهلك كمية الملح التي ستظهر على جسمك ووجهك بعد خروجك، فإنــك تصبح قطعة ملحية بيضــاء، يمكن أن تباع مــع قوالب الملح. فالاستحمام ضروري بعد كل خروج من المياه وإلا أكل الملح جلدك.

لم يصدق عاشور أنه يســبح بلا مساعد، فقد قضى يومين لا يكاد يخــرج من جهة حتى يعود من جهة أخرى، أما سَاسِــي فلم تخطر بباله شيري، فلم يستطع طيفها تخطى بحر الرمال العظيم.

لا تناقش السفهاء فسيستدرجونك إلى مستواهم ثم يغلبونك بخبرتهم في النقاش السفيه.

مارتن توين

(٩) العَرَّاف

مثلما تتجمع الفراشات على الضوء الساحر تجمعت بعض الطالبات أمام المدرسة ومن بينهن اللبنانية شيري، وذلك بعد إتمام آخر امتحان من امتحانات الشهادة الإعدادية، التقطت كل واحدة منهن سبع حجرات ونادت إحداهن شيري:

ـ هيا يا شيري معنا نحذف وراء الإعدادية سبع رشادات[1].

وذلك مثلما تفعل الجدات في اعتقادهن بأن من يخرج وترمي وراءه الحجارة فإنه لا يعود، على عكس من ترجو سلامته وعودته فترش وراءه الماء.

(١) رشادات: جمع رشادة وهي الحجر.

التقط سَاسِـي هذا المشـهد ووقّع عليه بنظرة إليها ربما فتحت في نفسـها ما أغلقته أبواب الإعدادية، فثنت رقبتها جانبا ونظرت من أسـفل، مع رفـع كتفيها إيذانـا بالاسـتجابة الخجلة، لم تدر أنها عضت قلبه حين عضت شـفتها السفلى، فانطلق ما يشبه النمل بجسمه، واسترسـلت مهجته في أحلامها ومبادراتها العفوية فقال في نفسه:

ـ نعم بلا شـك إنها تحبني، لم تصـِّرحْ بهذا لكن نظرتها توحي بأنها تحبني حتى آخر نفس.

أطلَّـتْ من مرحلـة الثانوية تباشـيرُها، وقبل ظهـور النتائج، يجيب سَاسِـي من يسأل عن مسـتواه الدراسي: أنا أقرأ في الثانوية، الأول الثانوي، استبشارا أو فألاً.

تذبذبت علاقة سَاسِـي بأصدقائه، فمرة جيدة والعكس أخرى، وخاصـة دياب، فلازالا يلتقيـان وكأن أحدهما لم يعاهد الآخر على الصداقة الأبدية، وكأنهما لم يتبادلا أسـرارهما ويتشـاركاهما بعد ذلك مع كل المجموعة، فغالبا ما يكتفيان بتحية:

ـ أهلاً يا ساسي.

ـ أهلاً يا دياب.

لم تكن بالقرية ثانوية حينها، فسجل أغلب الطلاب في مدرسة سمنو[1] الثانوية، وبعضهم في ثانويات مدينة سبها، بقيت مشكلة المواصلات، فالطريق إلى سبها مزدحمة، لكثرة الموظفين المتجهين إلى أعمالهم من وادي البوانيس الذي يضم كلا من:

تمنهنت وسمنو والزيغن، وجرت العادة أن يحمل أصحاب السيارات من لا سيارة له ممن يقفون على الطريق بدون مقابل، أما سمنو فلا سيارات تذهب باتجاهها صباحا إلَّا ما ندر؛ مما جعل الطلاب الدارسين في فيها يكونون مجموعات، ويأتي الدور على أحدهم مرة في الأسبوع. تقلَّد الطلاب همهم للعلم وبعضهم تقلد خموله وكسله وشغبه؛ ففي تلك السنوات كانت بعض المدارس تعج بالفوضى والشغب؛ فالطالب الذكي هو الذي يبتكر طريقة جديدة في شغبه يذهل بها الطلاب ويطيح بها من هيبة المعلم، أما أفضل الطلاب حالا عند المعلمين فهو من إذا دخل المعلم أصبح يصدر أصواتا لا تعرف نوعها ولا يستطيع المعلم تحديد مصدر الصوت مهما ركز وأنصت. هذا كان حال أغلب المدارس ساعتها، ولم يعرف سَاسِي أن

(١) سمنو: منطقة تبعد عن مدينة سبها ٣٠ كيلو متر. وتقع تمنهنت في منتصف المسافة بينهما.

هنالــك من الطلاب مــن يتغيب أو يهرب من المدرســة إلَّا في مرحلة الثانوية؛ فإذا به يقول:

ـ إيييييه، فاتنا الكثيييير الكثير.

لكنه وجد بديلا عن دياب ليتعلم منه المهارات الصبيانية المتعددة كالتدخين وغيره، فجل الطلاب كانوا مدخنين، وأصبح سَاسِـي ممن لا يكاد تستريح شفتاه، ولا تستنشق رئته إلَّا السجائر. فلا ولي أمر سيأتي من مسافة ثلاثين كيلو مترا ليراقبه، ولا عم ولا خال، بمعنى (لا حزاز لا محامي)[1].

الجلوس في الحديقة القريبة من المدرســة هو أفضل خيار بديلا عن الحصص المدرســية، يمكــن الاختباء في الحديقــة لكثافتها، أو الجلوس في إحدى الســيارات التي أقلَّــت الزملاء حتى يخرجوا من المدرسة، فيما يفعل التفكير في شيري أفاعيله.

ـ تحبني أم لا. لم تقل لكن حركاتها تشير إلى جنونها بي.

هكذا بــدأ العام الدراســي وهكذا ســينتهي، دور ثان في أغلب المواد، ونجاح في النهاية.

(١) لا حــزاز لا محامي: مثل ليبي يســتعمل أحياناً لوصف من ليس له من ينهاه عن الخطأ.

انتقلت شـيري إلى مدينة سـبها وانقطعت أخبارهـا، ولم يكن ليصعـب على سَاسِـي الإتيـان بأخبارها، فديـاب وإن لم يعد ذلك الصديـق الودود إلَّا أنه لا يرد هكذا طلبات، طلب مسـاعدته فأطلق دياب قرون استشـعاره وهدهده وحـرك مهارته في المراقبة وأتى من جهينة بيقين خبرها عن شيري ومكان سكناها ومدرستها وملابسها المعتادة وغير ذلك، فأخذ سَاسِـي على عاتقـه زيارتها، لا ليكلمها بـل لينظر إليها ويدعها تـراه فقط، فقد كان أجبن من أن يقول لها: (صباح الخير).

لملم شـجاعته وزارها عن بعد، لم تبادله شيري غير نظرة أتعبته وجعلته يدور على نفسه، تفاجأت في البداية فوقفت واجمة للحظات ثم انطلقت في طريقها، وانطلق هو إلى بلدته وفي داخله طاووس وديك.

استمرت الحال على هذا النحو إلى أن أطلت نهاية العام، وكانت الثانويات في تلك الفترة ذات طابع عسكري، وتسمى المدرسة ثكنةً؛ تماشيًا مع نظامها العسكري فتكون الثكنة تابعة لإحدى الكتائب في الجيش، وكان نصيب ثكنة سَاسِي كتيبة الهندسة، وهي الفرقة التي تختص بزرع حقول الألغام ونزعها، ودراسة طبيعة الأرض تمهيدًا لباقـي الجيش، أما المدربـون فهم ضباط وجنود يأتـون من الكتيبة

الرئيسية في مدينة سبها، وفي أيام الدراسة لم يكن للطلاب من رادع إلَّا ذلك الضابط الذي لا يعرف إلَّا (التنجير)[1]عقوبةً للمشاغبين.

بعد نهاية السنة استمرت الكتيبة في التدريب للذكور من الطلاب، ولنقص المواصلات تم التنسيق بين المدربين العسكريين وبين الطلاب القادمين من تمنهنت بأن يمر الضابط وجنوده على طلاب تمنهنت ويحضرونهم معهم إلى الثكنة، حيث يقف الطلاب على الطريق العام، كانت المركبة التي تقلهم تَسَعُ الجميع، فالضابط والجنود من الأمام والطلاب متكدسون على بعض من الخلف، فتأتي تلك التيوتا زرقاء اللون كل يوم في موعدها، وكم كانت متعبه، فالدخان الذي يخرج من أنبوب العادم لا يغادر السيارة إلَّا ليدخلها حيث يجلس سَاسِي ورفاقه ليستقر في رئاتهم، فتعج السيارة بالدخان و(الصنان)[2] وغير ذلك، ولا يخلو الأمر من بعض المزحات الثقيلة من الضابط، فيضحك الجنود مجاملةً للضابط، كما يضحك سَاسِي ورفاقه مجاملة وخوفا من الجنود، وبعد الوصول يتغير الأمر

(١) التنجير: إحدى العقوبات في العسكرية يجثو المستجد على ركبتيه مشمرا السروال إلى أعلى الركبة، ويأتي العسكري ويضرب رجل المستجد من الخلف فتنزلق ركبته على الأرض وتسيل منها الدماء.

(٢) الصنان: رائحة الإبط.

وينقلــب الضابــط والجنود ذئابا وضباعا، كأنــه لم يكن بينهم وبين طلاب تمنهنت رفقةً لثلاثــين كيلومتر يوميا، ويتحول ذلك الضابط من مازح ثقيل إلى شخص فظ؛ ملقيا عليهم ألفاظا قذرة.

فلم يكتب للطلاب عطلة صيفية، مما زاد الإرهاق والتعب، ولم يكن لسَاسِــي إلَّا أن يتمارض، فيســتعير بعض الوعكات والنزلات المعوية ليستقوي بها ويتخلص ولو ليوم من إهانات (اللايدي)[1] وغيره.

عند توعكه المصطنع وبقائه في البيت علم سَاسِــي أنه أوقع نفسه في شِــراك حيلته، فقــد جاءت العجــوز الــتي كان يخافها صغيرا ويتحاشــاها شــاباً، دخلت فوجدته مســتلقيا وأمــه إلى جانبه، قد شــفها حاله، فاستغلت الأم قدوم الحاجة (عَيَّادَة) لتلقي عليه بعض التعاويذ والتمتمات لتزيل عنه آلامه، كاد سَاسِــي أن يفضح نفســه ويكشف أوراقه، كاد أن ينهض معترفًا بتمثيله على العائلة، فهو لا يزال يتذكر عندما كان صغيرا كيف عالجته هذه العجوز بما يعرف بـ (قَلْعِ الكُرُومَة)[2] فقلعُ الكُرُومَةِ هو أشد ما يخشاه الأطفال وقتها؛

(١) اللايدي: هو أحد الجنود الذين يشرفون على التدريب العسكري.

(٢) الكرومة: اللوزتان، يدخل أحدهم إصبعه في حال الطفل ويحركه بطريقة معينة، طريقة تستعمل لعلاج اللوزتين قديمًا.

ذلــك للألم الــذي يحدثه إصبع المعــالج عند اقتحامــه حلق الطفل، فيخرج ملطخا بالدم.

كاد أن يقفــز لما رآها، فهي لن تدخــل إصبعها في فمه هذه المرة، بل ستجبره على تناول أشياء لا يستسيغها حتى الكلب، لكنه أكمل تمثيلــه ببعض الآهات الباردة مع رفع حاجبيه قليلا وإرخاء حنكه وشــفته السفلى وشــيء من (التصخصيخ)[1] مع النوم بعيني ذئب، فكان منبطحًا على بطنه وينظر من أســفل ويتجسس في الوقت نفسه على وشوشــة العجائز، فشاهد أكبر درس له في عالم الغيبيات، فقد أخرجت الحاجة عَيَّادة مســبحتها من (شُــكْلَتِهَا)[2] وأمسكتها من الشــاهد، ودَلَّتْها للأســفل وثبَّتت يدها لتبدأ المسبحة في الدوران في أحد الاتجاهات بمفردها، ثم تغيِّر اتجاه لفها، أو تأخذ في الســعي بين اليمين واليسار، أو الأمام والخلف، كل ذلك وهي تتمتم:

ـ يا تاقزة النبي. اصدقي ولا تكذبي. سألتك بالنبي. والسيد علي

(١) التصخصيخ: هو حالة الهزال التي تصيب المريض.

(٢) الشُّــكلة: هي طــرف الرداء من الداخل في الزي الليبي، تســتعمله النســاء مثل الجيب.

ما سألتك عن ريح تهب، ولا فارس يقُبّ. سألتك عن (صالح) ولد (امباركة) يروَّحْ من تشاد و إلَّا ما يروحْ.[1]

(صالح) هذا هو شـقيق سَاسِـي، كان من الجنود الذي شاركوا في حرب تشـاد في الثمانينات. ثم أعـادت الحاجة عيادة تلك العبارات لمعرفة خاتم امباركة (أم سَاسِـي) الذي ضاع منذ أيام، هل لا زال في البيت أم لا، أم أنه قد سرق.

حفظ سَاسِـي الكلمات عن ظهر قلب، وفهم كيف يمسك المسبحة وكل ما يخص عملية التّاقْزَة[2]، في المساء خرج سَاسِي من قمقمه وقد اسـتولى على مسـبحة أمه، وقرر خوض التجربة بنفسه، سيجرب التَّاقْزَةْ في معرفة حب شيري من عدمه، فجلس جلسة العجوز عيَّادة وبدأ يتمتم:

ـ يـا تاقزة النـبي. اصدقي لا تكذبي... حتى وصل، سـألتك عن شـيري هل تحبني أم لا، وكانت المسـبحة تجيبه بالإيجاب في كل مرة، فقد كرر العملية ما يقارب العشر مرات ليقطع الشك باليقين،

(١) الكلام بالعامية الليبية.

(٢) التاقزة: هي إحدى طرق العرَّافين في محاولاتهم لمعرفة الغيب.

وقــد قطعــه. تأكد الآن من حبها، ولو لم تبح هــي به، وأراد هو أن يبوح لأي أحد بما قد اكتشفه.

في تلك الأثناء جاء رفاقه لزيارته وليخبروه بما حدث في الثكنة، ومن الذي تم تنجيره ومن تم تغطيســه أو تذنيبه، حتى إذا انتهت المواقف خرج لهم بما لم يروه من قبل، وقصَّ ماحدث.

ـ يــا جماعة الخير.. باركوا لي.. تأكدت من أن شــيري تحبني. تصوروا.. تحبني وتكتم في نفسها كل هذه المدة.

ـ كيــف عرفت يا أبا العُرّيف؟ أأخبرتــك العصفورة أم بعثت لك رسالة؟ أرح نفسك، هههههه شيري لن تنظر لرمتك يا ساسي.

أثاره ذلك الاســتهزاء، ققــص عليهم قصته، ولكــي يقتنعوا، تمت تجربة الأداة الســحرية التي تأتي بالأنباء ولا هدهد سليمان، وذلك بإخفاء شيء عن سَاسِي وعليه هو أن يكتشف مكانه باستخدام المســبحة وعباراته الغريبة، ففي كل مرة يتعرف سَاسِي على مكان الشــيء ومن أخفاه، إلى أن تأكد واقتنع آخرهم وأكثرهم شكا حتى في نفسه.

تتابعت الأيام واعتمد سَاسِي في حياته على المسبحة، كان يستعمل المسبحة حتى في دخوله دورة المياه أو الصلاة.

في التدريب الصيفي بالثكنة قد يتأخر الضابط والجنود وقد يتغيبون أصلا؛ فيبقى الطلاب على الطريق حتى الثانية عشر ثم يعودون أدراجهم إلى منازلهم، فتطوع سَاسِي بالتنبؤ بمجيئهم من عدمه، ففي كل صباح بعد أداء الصلاة يستحضر تقطيب العجوز (عيّادة) في وجهه وتمتماتها على لسانه ويبدأ في (التاقزة)، وما تخبره به المسبحة هو الواقع، فيخرج على الرفاق مثل مشهد خروج فرعون على الملأ فيقول لهم: ما علمت لكم من إله غيري. فيخبرهم سَاسِي بأن يرجعوا لمنازلهم أو يؤكد مجيء الجنود.

وهكذا صدقت جميع توقعاته مؤكدا للجميع قدرته على الإطلاع على ما لم يحدث بعد.

في ذلك الصباح أخبرته عصفورتُه بأن الضابط والجنود سيتغيبون اليوم، فتجمع الطلاب أمام بيته وأخبرهم بأن يعودوا إلى النوم، وأول من عاد للنوم هو ومن ثم رجع جميع الطلاب إلى منازلهم، إلَّا أن الضابط وجنوده في ذلك الصباح خالفوا الأمر ومروا ولم يجدوا أحدا من طلاب تمنهنت، وصادف في ذلك اليوم أن يكون التدريب خارج الثكنة في ميدان التجارب العملية، حيث تم تفجير بعض الألغام ليتعرف المتدربون على الصوت والقوة التدميرية؛ وتنتزع

منهم الرهبة، وكان ذلك اليوم هو ثمرة التدريب لأشـهر. لم يحضر سَاسِي ولا رفاقه.

اليوم التالي أخبرته المسـبحة بأن الضابط وجنوده سـيمرون هذا الصباح، وبالفعل مروا ووجدوا طلاب تمنهنت منتظرين فحملوهم، ولم يتثاقـل الضابـط بنكته البـاردة هذه المرة، ولم يبتسـم الجنود ابتسـاماتهم المرخية الصفراء، وصلوا الثكنة وبدأ الجمع العسكري وتم حصـر غياب الأمس، وحجز مـن كان غائبًا على جانب، وكانوا طلاب تمنهنت فقط، معهم طالـب من بلدة (الزيغن) وآخر من بلدة (سمنـو)، وأرجعوهما عندمـا أخرجا وصفاتهم الطبيـة التي تفيد مرضهـم، ولم يبق غير سَاسِـي ورفاقـه ومعهم الضابـط العبوس، واللايدي الذي انقلب بجلد ضبـع ينتظر الأوامر للتذنيب والتنجير والتغطيس والدحرجة وسف التراب.

مـا لم يـروه طيلة العـام رأوه في تلك السـاعات، وبعـد انتهاء العقوبات بما جادت به قريحة اللايدي وقف الرفاق لسَاسِـي والتفوا عليـه لينالوا منـه، وبالفعل، أكملوا ما بدأه اللايـدي وما غاب عن ذهنه، فأخذ يصرخ.

ـ السـبحة، السـبحة. غلطة سـبحة، شـعفة يا داود.. معادش نعاود.

لم يعد يثق بأخبار المسبحة أبدا، لكنه ظل متأكدا من صحة حب شيري له كما أخبرته المسبحة.

على الإنسـان أن يفعل ما يعظ الناس به،
كما عليه أيضًا أن يعظ الناس بما يفعله.

كونفوشيوس

(١٠) مستقبل

وجـوهٌ غير مألوفة، طلابٌ مسـؤولٌ كل واحد منهم عن نفسـه، فيعرف مكان محاضرته، ثم يغادر المكان إلى مدرج آخر، أسـاتذةٌ لا يتحدثون في الغالب مع الطلاب، وطلابٌ يقفون لسـاعاتٍ طويلة على قدم واحدة مسـتندين على جدار، وتقف أمامهـم طالبات، تتحرك شفاهم بلا صوت، تكاد أعينهم تدمع زيتا.

وجد سَاسِي نفسه في هذا النظام الجديد، ما اعتاد على مثله، رَكَنَ إلى أقربهم إليه صلة،عاشـور ودياب، وبالتقائهم تجاذب الأصدقاء مغامراتهم الطفولية، وتذاكـروا ذلك المكان الذي يحكى أنه وجدت فيه جثة إنسان بالقرب من الأثلة، وكيف أسرعوا خوفا من الغولة، وتذاكـروا أيضا كدوة الديس وكيف هجمت عليهم الكلبة المسـعورة بنباحها، وتذكروا قصة غرق عاشور في الجابية.

كان لدياب سبق الدخول إلى الجامعة واكتشاف مجاهلها، ففتح أنظارهم على تلك المجاهل والخفايا التي لا يعرفها الكثير ممن تخرجوا فضلا عن المسجلين الجدد، لم يكن دياب منتظما في الحضور عادة، لكنه ما إن تطأ قدماه الحرم الجامعي فإنه لا يغادر الكافيتيريا التي تخرَّج منها أباطرة العشق الجامعي، ولربما كان هذا شأن سَاسِي، ربما في نظره أنه سيكون أحد هؤلاء الأباطرة؛ فلملم تركيزه وشحذ همته واستدعى دهاءه والتحق بالركب، فديار شيري أصبحت دياره، فلابد أنه سيكون له معها وقفة قدم أو استنادة لجدار، لكن لا أثر لها، استطلع قوائم المسجلين. لم يجد لها اسماً.

كان يتخيلها هنا وهناك، في أماكن متعددة، يراها جالسة تنتظره، يراها مستندة إلى ذلك الجدار ممسكة بمذكراتها، ويغافله قلبه مرة أخرى بأنها خلفه، تمشي حيث يمشي، تجلس حيث يجلس. نَهَرَ قلبَه وعقلَه الذيْنِ لم يجتمعا إلَّا ليغررا به، ويسقيانه السراب في كؤوس الغفلة. طاف الأقسام بحثا عن اسم شيري، لم يجد شيئا.

هنا اتكأ على الخبرة الديابية، وإن كانت علاقتهما ليست جيدة إلَّا أن دياب تعجبه هذه المهام المخابراتية. استقصى بمعارفه وعيونه الخفية والمتمرسة بجمع المعلومات.

ـ لا تتعب نفسك سَاسِي.. إنها لم تدخل الجامعة، ولم تسجل في أي كلية. وأغلب الظن أنها ستغادر الجنوب.

ـ إلى أين ؟

ـ لست متأكدا إلى الآن.. أمهلني إلى الغد وسأعرف لك وجهتها وتخطيطها.

كان دياب متأكدا من وسائله، لكن الأيام طالت ولم يأت خبر، ولم تظهر شيري، ولم يعد لسَاسِي أدنى احتمال ومقدرة، فاعتمد على نفسه في تقصي الحقائق، وأغرب ما يكون أنه رجع إلى تلك المسبحة التي لم يحملها منذ أن كان في الثانوية، والتي بسببها لاقى من الضابط والجنود ما لاقى، وأصابه من زملائه ما أصابه. أمسكها وجدد في نفسه النية وصححها بأنه لن يصدق ما تقوله؛ بل سيستأنس بنتائجها فقط، ظل يردد:

ـ يا تاقزة النبي.اصدقي ولا تكذبي، سألتك بالنبي، والسيد علي...

لكنها ظلت تجيبه بإجابات ذات نسب متساوية، أحيانا موجودة، وأخرى سافرت وهكذا. مما زاد معاناته وزاد إلحاحَه على معرفة شأنها، وبالرغم من أن السنة الدراسية قد تناصفت إلَّا أنه لم يتوقف، ذلك لما تركه أملُ لقياها من أخاديد على وجهه.

في هذه الأثناء كان عاشــور يهيئ نفسه للسفر إلى الشرق استجابة لدعــوةٍ وطلــبٍ من الحــاج (برَيِّك) الــذي أنجبت زوجتــه في بلدة (تمنهنت) حينما أُقْفِلَتْ منافذُ مدينةِ (ســبها)؛ بســبب متطرفين تمكنوا مــن دخول المدينة. كبرت تلك البنت وصارت صبية وسميت (تمنهنت)، ولطول الاســم وثقله على طفلة صارت تدعى (هنت)، هيأتها أمها بقولها ســيأتي شاب من الجنوب، وهو ابن ذلك الرجل الذي رأيت فيه نور الدنيا بمنزله، وتحملين اليوم اسم المنطقة.

تشوقت البنتُ لرؤية أخوالها كما أحبَّت أمها أن تصفهم، وكانت ســعادة الحاج بريِّك أكبر بلقاء عاشور وقد صار رجلاً، فعرض عليه الانتقال إلى الشــرق، وأن يستأنف دراسته في إحدى الكليات، راقت الفكرة لعاشــور واستحسنها، لكنه لا يستطيع إضاعة سنة دراسية، فأرجأ الفكرة إلى أن ينهي العام الدراســي ومــن ثم ينتقل إلى إحدى كليات الشرق؛ طبعا إذا وافق والده.

قضى عاشــور أياما في ربوع الشــرق الساحرة، لم يفوت نسمة من نســماته التي تشــترى بأنصاف الأعمار، تَبَنَّى مســألة (عِشْ يومَك وانْسَ أَمسِكَ ولا تفكر في غدِك)، على الأقل إلى حين الرجوع إلى كدوة

الديس، وبستان كريش، وأم الرسو [1]، حتى إنه تجرأ ونزل المياه بعد أن حاصرته النظرات التي تشكك في قدرته على أن يحمل نفسه فوق الماء، فأثبت القدرة، وجال به فكره طويلا قبل أن تدعوه لحظة الوداع أن يترك في نفس البنت الجميلة (هنت) شرارة، ويغادر بعد أن أطفأ ظمأه الصحراوي بندى الشرق.

رجع ليجد سَاسِي صديقه قد دخل في متاهة وهوة لا قرار لها؛ فبعد أن عجزت مسبحته عن خبر شيري وبتدابير أحد عملاء دياب لجأ إلى رجل يقال أنه صاحب رؤية وبركة، وأنه لا يستعمل مسبحة ولا غيرها، فقط يأخذ الاسم واسم الأم ليأتيك بتقرير عن أي شخصية، المهم أن يكون لها وجود حقيقي على الأرض. لا حل إلَّا الشيخ عثمان المبارك الجليل. دخل عليه ليجد المئات من القنينات الملأى بالماء أو ما يشبهه، يجلس الشيخ عثمان في أول الغرفة؛ لعدم قدرته على الدخول بسبب القنينات والأواني الموضوعة على الأرض. فطلب الشيخ البيانات اللازمة للتقرير.

ـ اسمي سَاسِي، واسم أمي امباركة.

(١) كدوة الديس، بستان كريش، أم الرسو: هي أماكن ومزارع ومناطق في قرية عاشور.

ـ وما اسمها ؟

ـ اسمها شيري، واسم أمها نورا.

لحظات وأومأ برأسه استحسانًا.

ـ يا سَاسِـــي.. الواضح عندي أنها سافرت إلى طرابلس. ويسكنون بجانب بعض الأماكن التي تعلوها رايات مختلفة، ربما ســفارات أو قنصليــات أو نحوها. وتدرس في كلية صيدلة أو طب، ويظهر عندي أن لها طريقاً واحداً، ويعني هذا أنها لن تعود يا ساسي.

أما أنت فعندك ســفر طويل، أرى طريقين طويلين جدا في نهاية أحدهمــا حقل مليء بالديــس وبعض النباتــات والأزهار. لم أتبين تفسيره جيدًا، لكن لا تخف، أما شيري فإنها لن تعود.

أغمض سَاسِــي نوافذ عقله على آخر كلمة (تعود) لكنه لم يطق صــبرًا، فمتى ســتعود، ولما لا أعود بها أنا، أخذ على نفســه العهد بــأن يتابع البحث حتى يصل إليهــا، واكتمل الرأي عنده بأن يلحق بالركب الشــمالي، فمادام عاشــور سيغادر للشرق فســأغادر أنا إلى الغرب، ســأتجه إلى الشمال على (وعد بربيع آخر)[1]، سأذهب ولو

(١) وعد بربيع آخر: عنوان مجموعة قصصية للأديبة غالية يونس الذرعاني.

استدعى الأمر أن أدرس الطب أو الفيزياء النووية من أجل شيري زهوة.

انتهت السنة الدراسية،وأقبلت أختها، لحق سَاسِي بـ (شيري) إلى طرابلس، تورط في إحدى الكليات التي لم يكن راغبا بها في الأساس، ولكن عيون (شيري) في نظره أهم من أي اعتبار للذات، فلا زال في حقيقة أمره يعيش حبًا، وربما كان وهماً، فهي لم تصرح بعبارة، مجرد نظرات وابتسامات تركت أثرها في ذلك الطفل، حتى صار شاباً، ومن ثم هو الآن رجل دخل الرجولة من أبهى أبوابها، وعلى الرغم من أن الساحة تضج بالعروض إلَّا أنه أمسك عن أي إغراء، الحب عنده هو الذي يختم بأنامل شيري ويُعَفَّر بجدائلها.

إن ما يعيش عليه هو محض أمل. بعد محاولات تكاد تكون من نسج الخيال الهندي عثر ساسي على إيميلها، وأرسل لها وقد وردتْ عليه، وأقرت له بمكانته عندها، وأدلى هو بدلوه واعترف لها بانحسار روحه نحوها وأخبرها أنه لحق بها إلى طرابلس، لكنها لم تكن لترضى أن يأخذها سيل المشاعر؛ فلديها امتحانات ودراسة وبحوث، فاشترطت عليه أن يبقى وفيا بحبها وهي كذلك؛ لكن دون أن يكون لهم تواصل بأي طريقة، إلى أن يأخذ كل منهما

الشـــهادة الجامعية. وافق على الفور، وهو الذي لم يرها من سنين، سيصبر ســـنتين ويظفر بها، ولمَّا أن أخبرته بأنها تسكن بالقرب من السفارة العراقية جعل طرق السفارة طريقه، عَلَّه يظفر برؤيتها.

في هــذا الوقت بقيت لدياب أشــهر عن التخــرج، ليتوج جهده بالشــهادة الجامعية، وفي الحقيقة لم يخرج بمعلومة واحدة منها؛ لأن توجهه غير ذلك. لم يخرج إلَّا بمقطوعة علقت في رأسه لسببين، الأول: طريقــة إلقائها من قِبَل المحاضر فقد كان يرفع يديه ثم يميل إلى الجانب الأيمن من القاعة، ثم يتقدم وينزل يديه كأنه يقوم بحمل شيء.

الســبب الثاني: ذِكْرُ الدِّيسِ فيها، فهو يذكره بحادثة الدراجة مع صديقيه عندما هاجمتهم الكلبة ذات الجراء التي تتخذ من حفرة في كــدوة الديس مخبئا لهــا، ثم إنه يذكره بالحاج (حســن العابد) صديق والــده الذي كانت حرفته صناعة الحُصُرِ من الدِّيس، فلا زال يردد المقطوعة متى صفا ذهنه قائلا:

يَحْزِمُ الدِّيسَ ويرقى في السَّماء..

يا رسولَ الديسِ عُدْنَا بالنماءْ.

يرفعُ الكفين شَيْخٌ.. ويشِي بالسِّرِ طفلٌ

في مرايَا حَرْفِهِ سِرُّ الدعاءْ.

أما عاشور فقد استكمل إجراءات نقله إلى إحدى كليات الشرق، وانكب على الدراسة، غير مكترثٍ بأي شيء في هذه الدنيا عدا تلك الصبية (هنت)، أحبها حبا أزليا في نظره، فيرى أنه كان على وعدٍ معها قبل أن تكون تمنهنت القرية، وما وُجِدَت تمنهنت القرية إلَّا ليكون اسمها اسمًا لهذه المعشوقة.

فَرَّتْ السنوات من بين الأيادي، وأُوتي الزمان ما قُدر، وحُطَّ من المواقف حسنها وقبيحها ما حُطَّ، وكما قيل: منهومان لا يشبعان: طالب علم وطالب مال، وما نزوع دياب نحو مشبوه العلاقات وشائن الأعمال إلَّا نوع من هذا النهم المزوج بما أوتي من دهاء وخبث وهو لا يدري.

تخرَّج دياب في كليته ولم يلتفت إلى الشهادة، ولم يفكر بجد في التعيين بإحدى المؤسسات الحكومية، بل طلب عيشه بما يقع تحت يديه، ولم يكن في أولوياته تكوين أسرة؛ بل كان رافضا للفكرة تماما، برغم إصرار أمه على ذلك، فيما التفت عاشور إلى تكوين نفسه علميا، حتى أخذت لغته مع الغير أكثر فلسفة وتعقيدا وتمنطقا، ولم ينازع انغماسه في كتبه إلَّا اشتياقه وانغماسه في عالم (هنت) حبيبته، فقد

قاسمته الأنفاس كما قاسمها النبض وبنيات الشــوق وهي التي تزيح بنزولها على خديهما كثيرًا من الآهات المكبوتة. تخرج من الجامعة وقدَّم على وظيفة معيد، لم يعد عاشور ذلك الطالب العاشق، بل أصبح مشــروع أستاذ جامعي تأمل فيه المجتمع خيرًا، ورأت فيه حبيبته هنت ذلك الفارس المتحصن بالعلم، وزاد استحسان الحاج بريك له، فزاد التقربُ والتوددُ، وكانت الأمور في سياقاتها واضحة، فإذا طلب عاشــور يد هنت فإنها ستذهب إلى مسقط رأســها، وهذا هو مسعى عاشــور خطوة بخطوة، ونفس بنفس، لكنه ســينتظر حتى يكوِّنَ ما يتكئ عليه في حياته، فليســت إمكانياته المادية ذات وفرة وســعة، مما زاده ســخطًا على وضعه المادي وحالة أسرته، فهي لا تكاد توفر دينارا، فكيف ستجهز لعاشور عرسه، جالت في فكره أمور كثيرة، مثــل الاقتراض، المشــاركة، الدخول في مغامــرة، الهجرة عن هذا الوطن الذي لم يبســط نعمه لأبنائه، وكلما فَــرَّتْ فكرة كَرَّتْ أخرى حتــى أصبح يموج في خليط من الأفكار المتضاربة المتنافرة المتســابقة على إنهاكه، فأصبح عشقه الأزلي يتناقص في ظل ظروفٍ لم تتحد إلَّا عليه لتحيل حياته ألمًا وجحيمًا وحبًا خديجا وفاقة.

فأصبحــت همته تخبو فيما همة سَاسِــي تعلو ألســنتها، ليظفر بشــيري التي لحق بها إلى طرابلس، غَيَّرَ ساســي حياته كلها وبدّلَ

تخصصه من أجلها، فبعد إكماله الكلية تحصل على عقد عمل بشركة صغيرة بمرتب متوسط، غير أن شيري لم تعد تستجيب لرسائله، إما امتناعًا أو صرفًا للنظر عن حماقة سَاسِـي، أو لأسباب أخرى فُرِضَتْ عليها من قبل أسـرتها، لكنه لم يتوقف عن رشـقها بوابل رسائله لعّلَّ واحدة منها تصيب موطن حنو وشـفقةٍ فيرق قلبُها وترد عليه. لم يسـتيقن أن القدر ما أغلق بابا إلَّا وفتح غيره، ولم يقطف وردة إلَّا ولها وريثتها.

في ذلك الصباح وهو مسـدل أهدابه، يرتشـف قهوته، يغيب ما بين الرشـفتين، فيرى صورتها ويسـمع صوتها، فتحدثه ويفترش الأرض لهـا زهرًا، يتبـادلان نظرات واجمة باسمـة، ويغيبان عن بعضهمـا بعضا، يلتقيـان في زحل، يرجع هو ليرتشـف الرشـفة اللاحقة، يتركها على زحل تدلي سـاقيها بين حلقاته، ويزداد قوة ويقينـا لمواصلة المسـير، هنا وقف الزمان لحظـة بتوقيعها على رد أتاه، والمفاجأة أنها هذه المرة كانت تريد لقاءه.

أن يستقبل منها ردًا هذا كفيل بأن يجعله طريح الفراش لأسبوع، فمـا بالك عنـد طلب اللقاء، الموعـد هو يوم الجمعة القـادم، المكان بمجمع مكاتب العلاقات الدولية، بشـارع الجمهورية، بالقرب من

مكتب القنصلية العراقية. استغرب الموعد وزمانه، فيوم الجمعة يوم عطلة، والمكاتب لا تداوم، لكنها أكدت على الموعد في رسالة أخرى.

حضر ساسي على الموعد، عينه على النقال والأخرى على كل شرفةٍ وباب، الشارع يكاد يكون خاليا من المارة، مما زاد الريبة في قلبه وعدم الاطمئنان. استقبل رسالة أخرى منها على النقال.

ـ آسفة على التأخير لسبب قاهر.

ـ لا عليك أنا بالقرب من المكان.

ـ أريد أن أخبرك أن المكان تغير. لكنه في نفس الشارع، بجانب القنصلية الليبية.

خانته الفطنة.. أخذ يسأل من يمر به قائلاً:

ـ عفوا.. أين مقر القنصلية الليبية.

تجاهله الكثير، وأجابه أحدهم بتهكم وسخرية: القنصلية الليبية تجدها في أي دولة أخرى عدا ليبيا.

ظهرت بين عينيه صورة المسبحة، وتذكر أن المنجم عثمان النيجيري الذي أخبره بأن شيري في طرابلس لم يكن يعرف أن لبنان كذلك بها طرابلس أخرى.

ذات يـوم قالـت لي أمي إذا صـرت جنديًّا فسـوف تصبـح جنـرالاً، وإذا صـرت راهبًـا فسـتصبح بابا الفاتيكان، بـدلاً من هذا كله صرت رسَّامًا فأصبحت بيكاسوا.

بابلو بيكاسو

(١١) أرجل الخنفساء

لم تكن أيام الجامعة تسمح لنا بالالتقاء، ذلك لتفرقنا بين الكليات والمدن، سَاسِي لحق أحلامه وأهواءه، بحثاً عن نظرة لشيري أو بسمةٍ تضمن له عدة أشهر من النشوى، فيما أخذت الصبيةُ الساحرةُ (هِنْت) قلبَ عاشور، فأمسـى ليله شوقا وتحناناً، ونهاره سخطا واحتقاناً، كان ينتظـر يوم الجمعـة بفارغ الصبر، كي يظفـر بالقرب ولو دون نظر، على الأقل، فالحاج (برَيِّك) تعود أن يدعو (عاشور) كل جمعةٍ ليتناولا الغداء سـويًّا، فحين يحضر يتراءى له أن كوب الشـاي قد عقدت عليه وردة،تشبه ابتسامتها ابتسامة حبيبته هنت التي يرى صورتها في كل ناحية، ترتسم على كل شيء تقع عيناه عليه.

لكن سخطه يكاد يذهب بما اكتنزه في قلبه من صور ومشاعر، سخطه موجه نحو نفسه وعائلته ومجتمعه، فبعد رؤية الدنيا بعين حالم وعالم أصبحت تتراءى له المساوئ والشرور وعدم المساواة والظلم وغير ذلك، نفسه ترهقه بالتساؤلات الإنكارية: كيف يَحِقُّ لِقِلَّةٍ من الشعب أن يستحوذوا على قوتِ الجميع ومقدراتهم وحقوقهم في التعليم، ونصيبهم من ثروة أرضهم ؟ وغير ذلك من تساؤلات توجب النقمة على وضعه. ربما لسَعَتْهُ الحاجةُ، فهو الآن في قمة طموحه.

وإن كَبُرَ طموحه فإنه لن يتجاوز اعتقال حبيبته هِنْت بين جدران، وإن زاد طموحه وتضخَّم فإنه سيصل إلى حصوله على وظيفة في إحدى الشركات أو مواصلة دراسته، خاصة وهو الذي يرى في نفسه أنه قد أخذ من العلم ما يؤهله لأن يكون في قائمة العلماء، وأن يكون له نتاج علمي من نظريات واكتشافات وأطروحات على غرار جان جاك روسو وفرويد وباسكال، وله أن يبحر بأفكاره، فهذه الأفكار والثقة في النفس والطموح هي ما يخلق الأبطال والزعماء والعلماء والمصلحين وبعض المجانين.

أما دياب فقد انكب على مغامراته وطورها قَدما بقدم بعد الجامعة، وكنا على علم بمغامراته التي نراها جميعًا مشوقة، ولكن

إذا نفضنـــا عن عقولنا بعض الغبار فإننا نراها لا تصلح لنا، إما خوفًا وترددًا، أو أنها تقوى مصطنعة، فأخذ كل واحد مســلكه وانتهج ما يمليه عليه توقه وتفكيره.

الأزهار تكاد تنطق مرحبة بزائرِ ذلك المكان، الهدوء هو الســمة الأكثر أخذا للألباب، الأشــجار منســقة ومقلمة بأشــكال جميلة، مثلثات مخروطات، حيوانات، في الزوايا تجد بعض المنحوتات ذات أشكال تجريدية جميلة، وبعض النصب الإسمنتية، توحي بحرفية عاليــة وذوق صانعيها، أحواض الأشــجار تحوي قائمة مشــكلة من أجمــل الأزهار، لم يخطر ببالي أن هنالك أزهار بهذه التشــكيلات والجمال، فأجمل زهرة رأيتها هي عباد الشــمس، تنافســها زهرة البرســيم بمســحتها البنفســجية الهادئة، من الواضح أن التنسيق تنســيق غربي، وهــذا ما تبين لاحقــا، فالموقع كان لشــركة ألمانية للطاقة الشمسية وأبحاثها، شيدته على طراز أبنيتها مثلثة الأسقف وحدائقها ومواقف ســياراتها وأروقتها، يدهشُ كل من دخل المكان للنظافة والتنســيق والخضرة الطاغية على الأرجاء والألوان المطلة من التحف والأزهار وألوان الممرات الإسمنتية.

دخلــتُ من البوابــة الخارجية. الباب الحديدي الكبير مشْــرَعٌ

على مصراعيه مرحباً بأي سيارة، فلا يوجد أحد في الاستقبال ولا السؤال، ولا أحد داخل ولا خارج، استغربت الأمر للوهلة الأولى، ولكن بعد معرفتي السبب فيما بعد خمد الاستغراب، ممرات ترابية وأخرى إسمنتية، تفوح فيها الأزهار بالشذى، ولا أحد يدلني على وجهتي، لا أحد يطل من قريب أو بعيد.

شدَّت انتباهي تلك الخنافس المنتشرة مذ دخلت البوابة، خنافس تقطع الطريقة وأخرى تخيط الممرات، وخنافس تتسلق الجدران. تتبعت ممراً ترابيا للسيارات، سرتُ قليلا، سمعتُ صوتاً، كان لسيارة آتية من خلفي، كانت مسرعة، مرت بجانبي، أثارت من حولي الغبار، لم أُعرها من اهتمامي، تابعت سيري قليلا، ومن بين الأشجار لمحت ثلاثة رجال مختبئين، منحشرين بين الأشجار والجدار، لا يبدو عليهم المفاجأة برؤيتي لهم. أطل أحدُهم برأسه ينظر خُلُو الممر، تحاشيتُ النظر مباشرة لهم أو الحديث معهم، سأل أحدُهم:

ـ إلى أين ؟

ـ أريدُ الإدارة.. أين هي ؟

ـ الإدارة.. الممر الثاني على اليمين.. كن حذرا... أسمعت الحذر.

لم يكــن مبنى الإدارة بالبعيد مشــيا على الأقدام، أما بالســيارة فيأخذ ضعف الوقت؛ لطول الطريق المخصص للمركبات.

وصلــت الإدارة مع وصول تلك الســيارة تقريبًا، نزل منها رجل قصير القامة، يميل للبدانة، ذو قيافة أنيقة، مشيته سريعة نسبيا، تقدم إلى داخل المبنى واختفى، كانت هذه المرة الأولى التي أراه فيها، وأظنها الأخيرة.

دخلــت مبنــى الإدارة، في الوقت الذي تكاد أشــعة الشــمس في الخارج توقِد الأشــجار ودرجة الحرارة تكاد تلامس الخمســينات تنقلــب درجة الحرارة بالداخل فكأنمــا فُتِحَت نافذةٌ على المبنى من أحد القطبين، المبنى بكامل تجهيزاته، فهو أشبه بقصور الضيافة، يغطي الســجاد الأحمر الأرضية، والجدران قد غُلِّف بعضُها ببســاط الأرضيات، وبعضها بلواصق كتانية وورقية، هدوء تام، ممرات بلا مارَّة، إلَّا واحدًا، عرفتُه من لباســه، إنــه القهوجي، جذبني بقوة إلى داخل مقهــاه قائلا: ابق هنا ولا تغادر المكان أسمعت ؟ لا تغادر مطلقاً.. وقدم لي كوب شاي أخضر، شديد الحلاوة، اختفى بعد ذلك للحظات ثم عاد وفي وجهه ابتســامة عريضة ويطبِّل على السفرة التي رجع بها، كان في غاية الانسجام فأخذ يغني:

(نِبِّيكْ دوا لعيوني... وانتي كيف عليًّا تهونِي)

ثم ختم أغنيته بدورةٍ على رجلٍ واحدة متجها نحويا قائلا:

ـ أها... قل لي الآن من تريد ؟ هل أنت من أولائك الجُدُد ؟

ـ نعم أنا منهم.. أنا من الجدد، وهذه أوراق تحويلي إليكم.

ـ حسناً... أكمل شَايَكَ وسأُوصِلُكَ إلى المسؤول عنكم.

أكمــل حديثه مع وعاد ليكمــل أغنيته التي لا يبــدوا عليه أنه يحفظها، ثم دعاني للخروج، سِــرنا في ذلك الممر، تغشانا السكينة، ويحوط القهوجي وقار وهو يســير، لا صوت لأقدامنا، تجاوزنا عدة ممــرات ومكاتب حتى دخلنا عليه، كان واقفا يرتب الملفات ويصفها في المكتبــة، كان معتدلاً طــولا، يبدو لون بشــرته في الأصل أبيضا، لكن لكرم حرارة الشــمس تركت له بعض البيــاض في أجزاء غائرة من وجهه وأشــربت الباقي مزيجًا مــن حمرة وسمرة، بين حاجبيه خطان عموديان، يخبران عن قســوته وغلظته، يغطي شــنبه نصف شفته السفلى، ثقيل اللسان، بطيء الكلام والحركة، حروف كلماته تخرج فرادى. وقفنا مكاننا، نظر إلى بازدراء بعد أن سلمت له رسالة التحويل الإداري. قال:

ـ وأين كنــت كل هذه الفترة يا (دَمَنْقَلْ)[1]، لقد تم تســجيلك في قوائم المتغيبين، وفي قائمة العقوبات لغيابك كل هذه الفترة.

ـ أنا آسف... الفترة الماضية هي فترة امتحانات.

ـ إذن أنت طالب !!... حســنا حســناً.. قــف بالخارج إلى حين عرضك على آمر المعسكر، ولكن قبل هذا يجب أن تقابل مساعد الآمر ليقوم بإجراءاته نحوك. اخْرُجْ وقِفْ خَارجَ المبنى حتى يراك المساعد.

أن يتم تحويلك إلى هذا المعســكر لهو أشــد وأســوأ قدر، هذا ما كان يتداوله المســتجدون أمثالي. وأن تبدأ مسيرتك فيه بمشكلة لهو كارثة بحجم أمة، وأن تورط نفسك بنفسك، وتضعَ يمينُك الأغلالَ في يُسرَاكَ والعكس لهو الغباءُ بعينه والنَّحْس وسوء التدبير والتفكير.

عنــد تقدمي للجامعة قبل ثلاث ســنين تَمَّ رفــضُ ملفي في تلك الســنة، فقد كان لي شــبه طموح لمواصلة الدراسة الجامعية، تحطم هذا الطموح بجبروت القانون الارتجالي الذي طرأ تلك السنة ليكون دفَّةً تغير مسار حياتي فيما بعد، عندها تقدمتُ للوظيفة أنا وصديقي

(١) دمنقل: ســبة. لم أعثر لها على معنى. لكنها تستخدم مرادفاً للرأس. دلالة على الغباء.

الفلسطيني، قُبِلَ هو للوظيفة، فقد كانت للفلسطينيين نفس حقوق الليبيين في التوظيف الحكومي وغيره، ورفض طلبي بحجة ضرورة إنهاء الخدمة الوطنية.

في مكتب التوظيف يوجد موظف يبدو أنه قفز من خمسينات القرن الماضي، قال بطريقة هزلية وتهكمية.

ـ وطنك يا عَمَّاااااار. وطنك يا عَمَّاااااااار.. اخدم وطنك ثم تقدم للوظيفة.

طَرِيقَا المستقبلِ العملُ والدراسةُ قد أُوصِدا تمامًا، والمسلك الوحيد كان عبر بوابة الجيش. تراءت لي البطولة الحمقاء في أن أدخل الجيش خدمة لهذا الوطن الذي يذلنا على يد مثل هذا الموظف، ولم أكن أعلم بمن سيأتي على منواله. دخلت لجنة الفحص، وتم الفحص ذات الساعة التي دخلت بها اللجنة، صُرف لي الرقم العسكري، وأصبحت حينئذٍ رقمًا لا يرتقي إلى كعب حذائي.

ولكن في كل وقت أزداد فيه كرها للبدلة العسكرية، أمقت كل ما يمت للجيش بصلة، فلم ألتحق بالمعسكر، مرت أشهر، أعدتُ تقديم أوراقي للجامعة في مطلع السنة التالية فتم القبول والترحيب. الآن بعد أن تورطتُ بالجيش وأصبحت فردا عسكريا مطلوبا في جميع

منافـذ المدينة، دخلتُ الجامعــة، لم أكترث بالجيش على الرغم من أن البوابات التي تقتنص الفارين من الخدمة الوطنية في كل مكان.

مرت السـنة الجامعية الأولى والثانيــة، حذرني بعض الأصدقاء مــن اللامبالاة بالجيش والاسـتهانة بما قد يفعلونــه إذا تم القبض علــيَّ. فاسمي موجود في لائحة القبض كمــا أخبروني، دَبَّ الخوف في نفســي، وقللت من الخروج من البيــت، وأصبحت أحتال بحملي بطاقة الجامعــة، لكنها لا تغني، وبعد عدة مواقف كاد يقبضُ عليَّ فيها تيقنتُ من أن الحيلة هي ترك الحيلة، استسلمت للمصير الذي ورطت نفسي بنفسي فيه.

دخلت معســكر التدريب، يتوجب البقاء في المعســكر العام ستة أشــهر، الخمســة وأربعون يومــا الأولى منها إقامــة جبرية داخل المعســكر، ومن بعدها يســمح بالخروج كل جمعة. مرت ستة أشهر كأنهــا الدهــر كلــه، دخلت بهيئــة وخرجت بأخــرى، في الوقت نفســه كنت أتابع الدراســة بالجامعة، أغيب عن المعســكر وأحضر محاضراتــي، وأغيب عن محاضراتي لأســجل حضوري بالمعســكر، إلى أن انتهــت فترة المعســكر العــام، تم توزيعنا على المعســكرات التخصصيــة، والكل يدعو أن لا يتم تحويله إلى ذلك المعســكر الفخم

الذي هو في الحقيقة فخ وليس فخم، لأن من يدخله لا يحلم أن ينفك منه إلَّا إذا رضي المساعد عنه.

وكانت الصدمة لما أن وجدت نفسي في قائمة ذلك المعسكر. فقررت منذ البداية أن أرتاح لفترة ثم ألتحق، ولن أعدم الحجة والتبرير لغيابي. من ثم التحقت بالمعسكر .

بعد أن طلب مني الصول ذو الشنب الكث واللسان الثقيل الوقوف خارجا لحين طلبي من قبل المساعد دخل الصول إليه، مكث معه بعض الوقت، أظنها اللحظات التي دُبِّرَ فيها ما يُدَبَّرُ بِليلٍ، وقفتُ بالخارج، وأصبح عملي مقتصرًا على رد السلام على الداخل والخارج، مر بي بعض المستجدين، أخبرني كل منهم بالشخصيات التي بالمعسكر وكيف يمكن أن أتجنب أيًّا منهم، وكيف أعامل الآخرين، ولم يثنِ أحدُهم على الصول ولا المساعد، وصفوا الصول بأنه متملق دساس منافق وخبيث، رغم قناع البراءة الذي يلبسه أحيانا، أما المساعد فوصفوه بأنه حقود ماكر لا يتورع عن أي فعل يُبْقِي المستجد طول عمره دون انفكاك من المعسكر.

بقيتُ واقفا لفترة طويلة، وقد طوعتني العسكرية؛ فتعلمت أن أقف الساعات دون حَرَاكٍ، خرج ذلك الرجل البدين أسمر اللون،

نظرتــه حادة،عرفته مباشــرة هو مســاعد الآمر، وظهــر لي صدق وصْفِهِــمْ لَه، ويبدو أنه قد تمرَّسَ في كيفية بث الرعب في الماثل أمامه دون كلمــة، مر أمامــي، ثم عاد دون أن يتكلم بلســانه، لكن عينيه تفيض شراً.

في المرة الثالثة مر من أمامي دون أن يلتفت قائلاً:

ـ أنت عَمَّار ؟؟

ـ نعم

ـ قيــل لي أنك طالب تدرس بالجامعــة، جميل.. أنا أحب هكذا شــخصيات.. لا مشــكلة في قضية غيابك، ســوف أتحدث مع الآمر بشأنك، وســأعمل على إقناعه لإعطائك تفريغا لأجل الدراسة، فقط انتظر أيامًا وسأبلغك بما يحصل مع الآمر.

هذه اللحظات شعرت بالخجل من نفسي، وأيقنت بخطأ أصدقائي المســتجدين في وصفهم، فالمساعد ودود، متفاهم، محب للعلم، عكس وصفهم.

أخــذت هذا الوعدَ على كــفِّ رضيع، طالتِ الأيام، وأنا أقف كل يوم في ذات المكان، أنتظر المســاعد علَّهَ يخبرني بما أترقب، في تلك

الأثناء زاد التقارب بيني وبين المساعد شيئا فشيئا، ولا يعدو عن كونه تحية ترفدها عبارة صباح الخير، وهذا يعد إنجازا كبيرًا، فالمساعد مما ظهر لي يخشاه ويتحاشاه الجميع، أما آمر المعسكر ففي طريقه لأن يكون (إلهاً) صغيراً داخل معسكره، فالجميع يرتعد لذكره ويختفي لظهوره، وعرفت لحظتها لماذا كانت البوابة خالية والباب مفتوحا، ولماذا يختبئ الرجال الثلاثة بين الأشجار، فلا قدرة لكائن في المعسكر على مواجهة آمره إلَّا الخنافس المنتشرة في كل مكان، وقد كانت السيارة التي مرت من جانبي هي سيارة الآمر.

هذا القرب الذي بيني وبين المساعد أشعل حفيظة الصول وأصابه في المحسد، فناصبني العداء جهارا. بالنسبة لي قررت الغياب بعد أسبوعين من الحضور والوقوف في نفس المكان دون نتيجة، تغيبت لمدة شهر أو أكثر، عدت فوجدت المعسكر مقلوبًا، يعج بالغرباء الذين لم أرهم من قبل، كان نظام العمل بالمعسكر عبارة عن ورديات أو نوبات حراسة، مقسمة على الجنود والضباط،بحيث يعمل العسكري أسبوعًا متواصلاً ويرتاح أسبوعين وهكذا، تأقلم كل من في المعسكر لسنين على هذا النظام، وتأقلمت بذلك عائلاتهم وشؤونهم الخارجية، تم إلغاء جميع الإجازات والراحات، وأصبح الحضور يوميا، دخلت الإدارة وليس لي دراية بشيء.

أسمع الجميع يلهج باسمي، وهم لا يعرفونني شخصيًا. وقفت مقابل لوحة الإعلانات وإذا بأحدهم يقف إلى جانبي، كان طويل الشعر حاد الملامح، كثير تجاعيد الوجه، تقاسيمه تدل على أنه خاض الحربين، أخذ يضرب كفيه ببعض ويقول:

ـ عَمَّار.. عَمَّار.. اااه لو أني أراه.. لو رأيته لخنقته بيدي هاتين.

سمعته، بَلَعْتُ ريقي، انسحبت تدريجيا إلى الوراء ثم غادرت أتمشى بين الأشجار، قابلني بعض الأصدقاء ممن ترافقت وإياهم بالمعسكر العام وفي نظراتهم تغير نحوي، وأخبروني بما هو متداول بالمعسكر.

الرواية أو الأكذوبة تقول أنني في تلك الأيام التي غبت فيها ذهبت أنا وأخي إلى الآمر في بيته، مستغلاً معرفة أخي به، لأجل الحصول على تفريغ للدراسة، مما جعل الآمر يستشيط غضبًا ويأمر بإيقاف الإجازات وتغيير النظام بالكامل.

عرفت لاحقا أن الوشاية والمكيدة كانت من الصول، لم أعرف كيف جرت الأمور، فليس هنالك سيناريو واضح، نوايا الصول واضحة جلية، ومنذ ذلك الوقت تغير المساعد من ناحيتي، فمن ذلك الشخص المحب للعلم إلى ذلك البغيض الذي طال حقده جميع من في

المعسكر، تم تلفيق التهمة، وتم تضخيمها لدرجة خيالية.

ولكن كما تخمد النار بعد لهيبها هدأت الأمور تدريجيًّا، عادت الأمــور إلى ما كانت عليه بالنســبة للجنود وغيرهم، أما أنا فعانيت مــن تلك الأكذوبة، فقد تغير كل من في المعســكر في معاملتهم إياي، كرهني الجميع لاعتقادهم الثابت بسيناريو الصول، مما اضطرني إلى الانفراد بمن في المعســكر فردا فردا مؤكدا لكلٍ منهم براءتي بتوضيح حقيقة الوشــاية، ونجحت في ذلك بدرجة كبيرة، لم يبق في المعسكر إلَّا الصول واثنان ممن على شاكلته، تركتهم للزمن.

تتابعــت الأشــهر وكنت كثير الغياب بســبب الدراســة، وكان الصول يحتفظ بمذكرات الغياب أو بصحائف الاتهام كما يسمونها، كان يحتفــظ بها إلى وقت امتحانات الجامعــة، كلما سمع أن هنالك امتحانــات قادمــة أخرج صحيفة الاتهــام وقدمها للمســاعد ليأمر بســجني، وعندما واجهته أقر بأنه يتحيَّنُ فترة الامتحانات قاصدا موافقة سجني أيام الامتحانات.

مرت الأشهر متثاقلة، تفاجأنا جميعًا ذات صباح بالحضور الكامل للمعســكر، قُطعت الإجازات، ألغيت الراحات، تَوقفت الدوريات. يضم المعسكر فئتين من الأعمار، المستجدين وهم في طور العشرينات،

والجنــود النظاميين والضباط وهم كبار الســن، ربما يطاول بعضهم الســبعين، كبرت سنهم وتثاقلت مشيتهم، المساعد رجل متسلط، لا يقيم اعتبارًا لكبير سن أو لغيره، جمع كل من في المعسكر، كوَّنَ بهم كردوسا كبيرًا[1]، قاد الكردوس يمينًا يسارًا، ونحن المستجدون نكاد ننفجر ضحكا على مشــية هؤلاء الجنرالات الهرمة، غير أن المساعد بنظراته الســامة قتــل فينا بادرة الضحك. وجــه الكردوس إلى أحد المباني ولا أحد يعرف ما المشــكلة وما القضية، ترمقنا عين المســاعد وترمينا بالتهديدات، نظر بعضهم نحوي نظرة شــك، فلي سابقة في نظرهم، بادلتهم بنظرة وبحركة شــفاه أن لا علم لي بشــي ولا شأن ولا يــد لي فيما يجــري، دخل الكردوس صفا صفــا إلى داخل المبني وأعيد تشــكيله في إحــدى الصالات المغطاة، تبــادر لذهننا أنه ربما سيتم إعدامنا رميا بالرصاص لأي تهمة.

أشــار المســاعد لنا بالنظر إلى أعلى، فرفعنا عينا وأبقينا الأخرى مســلطة على الآمر فلا ثقة لأحد فيه، اكتشــفنا أن المصابيح بالكامل قد انتزعت من مكانها، لم يبق إلَّا الأســلاك تتــدلى، أخذ يكيل لنا السباب والشتائم، ثارت ثائرته وأخذته حالةٌ هستيرية، أصبح ينط

(١) الكردوس هو الجنود المصطفون صفوفًا يتنقلون بحركة واحدة.

بلا شـعور، تحول ريقـه إلى رغوة بيضاء تتطايـر في وجوهنا، فزع الجميع، إنها واقعة سـرقة، لكنها في هذا المعسكر ربما تتحول إلى قضية أخرى، قضية أمن دولة أو غير ذلك.

رجـع الكردوس كاملا، تم توزيعه على كامل سـاحة التدريب، يفصل بين الفرد والآخر ثلاثة أمتار على الأقل، تحت أشعة الشمس التي تتسـابق لالتهامنا، حتى إن البدل العسـكرية أصدرت روائح الاحـتراق، ولا زال في هـذا المسـاعد بعض خير وحنـان، سمح لنا بالجلـوس ولكـن في أماكننا، لا مغادرة إلَّا لمن نـودي عليه، أخذت الصفوف تتناقص واحـداً بعد الآخر، من ينادى عليه ويتم التحقيق معـه لا يعـود لمكانه؛ حتـى لا ينقل الأخبار لمن بعده، كنا نسـمع الصراخ لبعضٍ ممن نودي عليهم، فاستعد كل منا لحتفه.

إنها فرصة كبيرة للصول والمسـاعد للانتقام مني بشـكل رسمي، علـى الرغم من أن الصول نفسـه كان واقفا معنـا في الكردوس إلَّا أن وقوفه وقوف شكلي لزيادة التصعيد، نادى أحد الجنود على اسمي، توقعت ما توقعت من السيناريوهات السيئة ولم يخطر لي ببال مثل هذا الموقف، حتى إني وفقًا لنظرية المؤامرة أحسست أن القضية كلها ملفقـة من أجل الإيقاع بي. تقدمت بعد أن اسـتحضرت ما قرأته في

كتاب: (سيكولوجية الإنسان المقهور)، لأشد به عزيمتي أو ليكون لي فيه سلوى على أقل تقدير. تقدمت، دخلت المبنى، بعض الجنود يقفون لحراسة المنافذ خوف هروب بعضهم. دخلت مكتب المساعد، للمـرة الأولى أنظر إلى عينيه نظرة اسـتحياء وخوف، بادلني نظرة تقطر بما تقطر.

هل أنجو ؟ هل سـيطيح بي هـذا الطاغية؟ هل سـتتمزق أخيرًا الأيقونة التي وضعني فيها جميع من في المعسـكر من احترام ومحبة بعد كره ؟ هل سأستطيع احتمال الضرب ؟

مـن الداخل يكاد القلب يخرج هلعـا، أكاد أسمع دقاته،أما من الخارج فقد تعجبت في الحقيقة من نفسـي، اسـتطعت السيطرة، لم أرتبـك على الرغـم من يقيني بالفلقة، فمعظم من سـبقني نالهم من الضـرب ما لا يحتمله طبل، بعد نظرات فاحصة من أسـفل إلى أعلى والعكـس وبعد أن كرمـش أعلى أنفه وربَّع شـفته العليا قال بجمل متتابعة:

ـ اقترب. قف هنا. اخلع حذاءك. اجلس.

فعلـتُ ما طلب مني وأنا أبتسـم، فالعقوبة لا محال واقعة، فلن أتلقاهـا وأنا مذعور، على الأقل لن يشـمت المسـاعد برؤيتي ذليلاً.

تصرفت بعفوية يغلفها هَبَلٌ مُصْطَنَعٌ، سَـأَلَني: هل تعرف شيئا عن المصابيح؟ أجبت بالنفي، لم يزد شيئا. أمرني بحمل حذائي والخروج. هكذا انتهى الموقف وكأن سحرا ألقي على المساعد.

أسـفرت التحقيقـات والتهديد بالكلاب البوليسـية عن القائمة القصيرة للمشتبه فيهم، تم احتجازهم داخل المعسكر لمتابعة التحقيق لاحقا، في اليوم التالي لم تكن هنالك كلاب بوليسية، تعرَّضَ المشتبه فيهـم للضـرب والتنكيل، ذلك في بادئ الأمر، بعد ذلك كنا نسـمع تأوهاتهـم وصراخهم فقـط ولا صوت للضرب، صراخ أشـبه بصراخ مرضـى، مما يثير فضولا للنظر إليهم ولو كان ليس بالمنظر الجميل، أغْـرَبُ التعذيب هـو التعذيب الصامت الذي انتهجه المسـاعد، كنا نتخيل ونتخيل أشـياء، ولكن لم نتوصـل إلى الحقيقة الصامتة، أو ما هـو العذاب الصامت الـذي يتعرض له زملاؤنـا والذي يجعلهم يتأوهـون تارة ويصرخون فجأة تارة أخـرى، الحقيقة الصامتة هي الخنفسـاء، أجدى وأنجع طريقة في الاسـتجواب من كلب بوليسـي متمرس برتبة رائد.

توضـع الخنفسـاء في كـوب زجاجي ويُقلَـبُ على سُـرَّةِ أحدِهم بالخنفساء التي فيه، فتظل الخنفساء تدور وتدور على حافة الكوب

محاولــة الخروج منــه، وفي دورانهــا تعمل أرجلها عمل شــفرات الحلاقة، فلا يملكُ المسكينُ إلَّا التأوه والصراخ المتقطع. تبادر لذهني كيف أن عاشور في عالمه، الشرق بخضرته وحلله السندسية البهية، ولا شــك في أنــه يعيش مع ليــلاه جنون قيس وولهــه، وقد قال لي ساعة التقينا في إحدى العطل أن الحاج بريك وعده بأنه سيعمل على توظيفه في إحدى الشركات النفطية عند إكمال سنوات الدراسة.

أينما تضع نفســك ســتجدها، وأينمــا تعقل عقلك فلــن يغادره جســدك، وأنا وضعت نفســي بــين براثن الصول وأنياب المســاعد، وعقلت عقلي بأرجل الخنفساء فلا أغادرها تفكيرًا ولا جسدًا.

أما سَاسِــي فإني أحسده على مَدَنِيَّتِهِ وعلى سذاجته، جريه وراء شيري وحلمه الضائع هو ما يعيش لأجله، وحُقَّ له، فشيري تستحق كل تضحية. وســيحظى بها يوما ويكون قــد عاش أحلى أيامه، وأنا هنا أفكر في تلك الخنفســاء وأضع يدي على سُــرّتِي أتحسســها. أما دياب فهو قاب قوسين من التخرج وقتها وسينصرف لشأنه، ويكفيه حياة المرح التي يحياها، فكلما التقينا في عطلة بدأ حديثه بأهزوجته التي لا يعرف غيرها:

يَحْزِمُ الدِّيسَ ويرقى في السَّماء..

يا رسولَ الديسِ عُدْنَا بالنماءْ.

يرفعُ الكفين شَيْخٌ.. ويشِي بالسِّرِ طفلٌ

في مرايَا حَرْفِهِ سِرُّ الدعاءْ.

ولا يفتأ يقلد الحاج حسن العابد وهو ينظم الديس ويجدله ليحيك به الحصير. وأنا أقلد الصول بطريقة كلامه البطيئة الثقيلة وكيف يحيك المؤامرات لي؛ ليرضي نزعته العدوانية الخبيثة، وكأنني أنازعه على شارته التي يضعها على ذراعه.

بعد وعيده ذات صائفة بأنه سوف يحبسني على الامتحانات النهائية حذرني صديق بقوله:

ـ إذا أردت أن تنجح هذه السنة فعليك مغادرة المعسكر فورًا، لأن الصول ينتظر الوقت المناسب لحبسك.

لم أستجب للتحذير، وكأن أحدا يقول لي إنه برغم شروره لا يمكن أن يحبسني في الامتحانات النهائية، ليتسبب في إعادة السنة الدراسية. مرت الأيام، قال لي أحد الجنود الذين يعملون بالإدارة:

ـ هل تغيبت الأسبوع الماضي ؟

ـ لم أتغيب؛ فأنا أُبَيِّضُ صفحتي لحضور للامتحانات، فالتزمت

بعدم الغياب لكي أطلب إجازة مع بداية الامتحانات.

ـ إذن يـا عمار هنالك أمرٌ دُبِّرَ لك. إنـي رأيت صحيفة اتهام لك بالغياب، ويريد الصول تقديمها للمساعد لحبسك.

خـلال كل الفترة التي اسـتضافني فيهـا هذا المعسـكر مُرَحِّبا بِكُلِّ ما أوتي من بشـائر الخوف والقلـق والإذلال كنتُ أكثر الأفراد سـجنا، بشـهادة الإدارة، غير أن الألفة كانت سـائدة بيني وبين الضباط والجنود، كنا أسـرة واحدة بغض النظر عن الصول ورفيقيه، فهم يغردون خارج السـرب، ففي كل مرة يكيد لي الصول وأسـجن يخرجني السـجانون بعد انتهاء الدوام، أي بعد الثالثة ظهرا، ولو صادف سـجني أيام الامتحانـات فإنهم يهربونـي صباحا لألتحق بالامتحان وأعود بعد ذلك، أما السـجن فهو أشـبه بالفرن، بل هو الفرن بعينـه، حاوية بضائع حديدية كالـتي في الموانئ، فتحت في أعلاها فتحة للتهوية، ولا كهرباء بها، نسـتعمل الشـموع فتضيء المـكان وتضيق الأنفاس، نطفئها قبـل أن تنطفئ أرواحنا داخلنا. ما إن تحل الشـمس ضفائرها حتى يستوي بداخل الحاوية من لم يرض عنه الصول.

في المسـاء كان دوري في الحراسـة الليلية، غدا سيكون أول يوم

في الامتحانـــات النهائية، أحضرت معي مذكرات دراســية، أتمهل في خطــوي، الطريــق جرداء خارج المعســكر، إلَّا أن الجو كان لطيفا نسبيا، عند وصولي أشار لي أحد الحراس أن أرجع من حيث أتيت، لأن الصول نفذ تهديده وقدم صحيفة الاتهام، وصدر الأمر بسجنك، فإذا دخلت المعسكر كان الحكم ساريا عليك، وإذا رجعت فأنا لم أرك وأنت ولم ترن.

رجعت مباشــرة، أَدَّيْتُ الامتحانات، اشــتهيت لنفســي فترة استجمام طويلة، رجعت بعدها إلى المعسكر ماثلا أمام وشاية الصول وعدالة المســاعد. تم اعتقالي مباشرة وأُودِعْتُ الحاوية، حانت لحظة الانتقــام، في النظام العســكري المطبق إذا زاد غيــاب الفرد عن فترة محــددة فإنه يعتبر مذنبــا هاربا، يماثل ذلــك الجناية في الأحوال المدنية، فيتوجب فتح محضر للمتهم، وهذا ما يخشــاه أي جندي، وخاصــة غير النظامــي من الذين ينتظرون رســائل إنهــاء الخدمة العســكرية، ومن يتــم تحويل محْضَــرِهِ للوحــدة الأم في العاصمة، فسيبقى لسنوات قبل أن تأتي رسالة انفكاكه. كانت الفاجعة، تقرر إجراء محضر لــي، وحدد موعده، تم التحقيــق معي في جو بائس. محضر إدانة. لم يتجاوز الدقيقة.

ـ هل تغيبت من الفترة كذا إلى الفترة كذا ؟ ولماذا ؟

ـ نعم تغيبت، بسبب إجراء امتحانات.

ـ هل أخذت إذنًا للدراسة ؟

ـ لا.

أقفل المحضر على هذا النحو مع بعض التوصيات المجانية.

من الضروري الذهاب إلى العاصمة للمثول أمام المحكمة العسكرية، كان الشتاء على الأبواب، ومع تقلبات الجو تعرضت لنزلة برد، لكن موعد المحاكمة لا يمكن تأجيله، قطعت تذكرة في إحدى الحافلات العملاقة الفخمة، لم أحمل معي إلَّا ورقة ملفوفة وغيارين، انطلقت وكلي أمل في أن يتم الفصل في المحضر وأرجع، فقد قيل لي بما أنه تم سجنك في المعسكر فإنه في حال حكم عليك بالسجن فالمدة التي قضيتها في السجن بالمعسكر ستحسب من فترة الحكم الذي سيصدر عليك أو أنه يسقط عنك نهائياً، طمأنني هذا كثيرًا، وصلتُ الوحدة الأم وتصحبُني وصايةٌ من أحد أصدقاء العائلة وهو ضابط سابق فيها، لم يكن متواجدا بالوحدة، لكنه أوصى بي. قدمت لهم رسالة التحويل فحددوا مباشرة يوم المحاكمة، وكان الموعد الصباح التالي.

أوقفوني خارجا،طلبوا مني سلب الحذاء العسكري، وسحب خيطه وتعليقه على رقبتي، وفك أزرار البدلة العسكرية التي أعارونيها لأجل المحاكمة، وطلبوا فك الحزام ووضعه على رقبتي أيضا،مع إنزال القبعة لتغطي حاجبي وأذنيَّ، ثم حمل الحذاء بيدي وأدخل حافيا مطأطأ الرأس، عملت كل هذا وبدأ القاضي بقراءة المحضر، فلا مجال للنجاة ولا مناورة للبراءة.

ـ هل تم سجنك هنالك في المعسكر ؟

ـ نعم من يوم كذا إلى يوم كذا.

ـ لقد ذُكر في المحضر أنك لم تسجن بتاتا. وذُكر فيه أشياء أخرى. يبدو أنهم يريدون الإيقاع بك.

بدا لي تعاطف القاضي، وكان ذلك بالفعل، أصدر الحكم علي بالسجن مع احتساب الفترة التي قضيتها هنالك بالحاوية،ووعدني بأنني سأسجن لفترة هنا ثم يعطيني إجازة باقي المدة، على أن أحضر في موعدٍ محددٍ لأخذ رسالة قضاء الحكم والفصل في المحضر.

هذه هي المرة الأولى التي أدخل فيها السجن وأنا راغب بذلك، وجدت بالسجن خمسة شباب، كلٌ بتهمته، تعارفنا تسامرنا،قص علينا أحدهم قصة انتحار والدته بعد سماعها وفاة عبد الحليم

حافظ، وقد كنت أكتب ما يشبه الشعر، وأرسم ما يشبه الإنسان، وكان بحوزة أحدهم صورة لحبيبته، فلما رآني أرسم طلب مني رسم صورة حبيبته، فكأنه أهداني فسحة خيالية، فالسجن لا يمضي أوقاته إلّا الانشغال في عمل ما، رسمتها، ربما توفقت فيها، فالشبه موجود، على الأقل أعجبت الحبيب السجين، عندها قال لي: والله لو أن لي يدك هذه التي رسمت بها لما بقيت في البلاد يوما إضافيا، مشيرا بيده قاصدا أوروبا.

انتهت فترة السجن. وتم الانفكاك من الصول والمساعد، لكنني لم أستطع الانفكاك من شيئين في ذهني: أرجل الخنفساء، وعبارة السجين العاشق (لو أن لي يدك لما بقيت يوما إضافيا) هذه العبارة التي حُفِرَتْ في ذاكرتي وأصبحت تدور وتدور في عقلي حتى أحاطت بي فكرة الإبحار شمالاً.

إذا كنت لا تسعى لتحقيق أحلامك فستصبح موظفاً عند شخص لتحقيق أحلامه.

توني قاسكنس

(١٢) نحاس تمنهنت

لم تأت الرياح بما خطط لها دياب، ولم تطع سفنُه الدفة، تبدلت حاله، طفت على السطح هاناته في التعامل مع المحيطين به، واستمر على هذا النحو، ومن جنس عمله ظلت تحيط به أوهام وعراقيل وكبوات، كُرهُ الآخرين له، حظُه، عدمُ حصوله على عمل لائق به وهو الذي كره انطواءه تحت وظيفة يحكم عليه فيها بالانضباط، كثرت مشاكله، وتفلتت جماعته وخرجوا عليه، مع نظرة الازدراء التي تلاحقه من كبار السن.

كبر تضخمت أوهامه ومعتقداته ومشكلاته، وإن كان لا يبدو عليه ذلك، صارت تتنازع تفكيره نظرات للمجتمع، ربما لا تبشر

بخير، ولكنه ظل مسـايرا لأفراد مجتمعه، كثر الخروج عن قريته إلى المدينـة، ربمـا لأيام، وهذا غـير معتاد عليه عنـد أبناء القرية وشـيوخها، أولئك الذين يعقدون تحسـبا لكل صغيرة وكبيرة، ومع هـذا كانت لهم نظرة خاصة ومعاملة شـبه شـخصية لدياب، ربما يرجـع إلى أن أبا دياب كان خطيبًا واعظًـا، فحدث التأثر والتأثير، وربمـا كانت ردا لجميل أبي دياب على هذه القرية، وفي الحقيقة أن مسؤولية التربية تتوزع على جميع الأفراد الأكبر سناً، بغض النظر عن القرابة.

ولما فتحت السـماء أبوابها أزهاراً ورياحين اسـتقبلها هذه المرة علـى هيئتها، فسـابقا كان لا يرى الأزهار إلى علفًـا ملونا ولا قيمة روحية أو معنوية لها، وهو الذي طالما كان يقف صاداً لوالدته؛ فهي تريد رؤية أحفادها، وهو يريد غير هذا، قالت له يومًا:

ـ يا دياب.. هل تريدني أن أموت قبل أن أفرح بأبنائك ؟... متى تتزوج ؟. ما عليك إلَّا الإشارة على أية بنت وتكون عروسك.

تقـدم دياب من أمه، وقرب وجهـه لوجهها.. حدق في عينيها، كادت عيناه أن تخرج من مكانهما.. لا يفصله عن وجه أمه إلَّا مسافة

يدٍ أو كرة، وببطء شديد.. وضع سبابته على أسفل عينه وشدها للأسفل ليخرج بياض عينيه كالبيضة. قائلا:

ـ اسمعيني.. لو أن الشعر نبت في عيني يوما فإنني سأفكر في الزواج.

تيقنت الأم أن لا فائدة مع هذا الرأس اليابس، فلم تفاتحه بعدها في هذا الموضوع لعلمها أن الشعر لا ينبت في العين كما أن دياب لا ينبت فيه اللين والرقة، ولا يثمر معه التهديد والقسوة.

مرت على هذا الموقف أكثر من سنة. ضحكت عندئذٍ الأم ضحكة ربما سمعها جيرانها، ضحكت وهي تنظر لدياب بطرف عينها، وذلك بعد أن فاتحها هو بأمر الخطبة لبنت جيرانهم.

ـ يبدو أنه قد نبت الشعر في عينيك يا دياب.

ـ ليس بالضبط يا أمي.. لكن أاااااا.. تستريحون مني.. وربما أعقل ولو قليلا، ثم إنه لابد من أن يستقل الرجل بحياته.. هذه سنة الحياة.

ـ حاااااضر.. يا سيدي.. استقل كما تشاء براحتك.. لكن طل علينا ساعة ساعة، لا تجافنا ولا تنس أمك وأخواتك.

بعد أشــهر تزوج ديــاب. وأهداه الله جوهــرةً غاية في الجمال، أسماهــا هبة، فحلق دياب بهبته في عالم من الأزهار والفراشــات، واغــترف من ليالــي الأنس أبهجها، إلَّا أن الفرحــة العارمة بدأت تغزوها للشــحوب ملامح، وأخذت غصون الأزاهر تذوي بأزاهرها، وكأن الصيــف على غير موعد أناخ مطاياه بباب عالمه الجديد الذي لم يستمر ليجني منه الحصرم على الأقل.

ورث ديــاب عن أبيه مشــقة الحيــاة وعنادها،وأخذ عن الحاج حسن العابد الجد والمثابرة في تحويله الديس إلى مفروشات، لكنه لم يرث ولم يأخذ عنهما الصبر الذي طالما تحلى به أبوه وصديقه الحاج حسن العابد.

في طور تجهيز نفسه للفرح افتتح دياب ورشة لتصليح السيارات، بدأها « بالبيجو» ذلك لوفرة قطع الغيار وسهولة التعامل معها، جنى منها أرباحاً لا بأس بها، مكنته من الاستقرار، راوده الطموح، فقد أصبحت ابنته هبة تكبر معها أحلامها كما تكبر طموحاته هو، غيَّر تخصصه الفني والتقني من السيارات الصغيرة إلى الشاحنات والآلات الكبيرة، تعرف على سائق إحدى الشاحنات وبدأت قصتهما معاً.

احميد (صاحب الشــاحنة) أكثر حنكــة وكما يقال (فلاحة) من دياب، وقد سرد قصته عليه، هذه القصة التي يتقافز منها الاحتيال

تــارةً وتارة أخرى نــوع من الســرقات المنمقة التي تغلــف برقائق التبريــرات والتأويلات غــير المقنعة، مجمل قصته أنــه كان موظفاً بشــركة الكهرباء لا يتقاضى اثنين بالمئة مما يتقاضاه اليوم، ولكنه ترك العمل ودخل عملا آخر.

بــدأت تلعب الفكــرة في ذهن دياب، وابتنى الشــيطان وكراً بين ورشة الميكانيكا والفكرة الجديدة، لكن الأخطبوط أطول أذرعاً.

ـ يا دياب الأمر لا يحتاج كل هذه الدراسة، المسألة مسألة ١+١

ـ ولكن في الأمر خطورة.

ـ أية خطورة، أنا كهربائي قديم، والأسلاك صارت بيني وبينها صداقة، الروح بالروح، والباقي من السهولة بمكان.

ـ وكيف يمكن تصريف الأسلاك ؟

ـ لي يا دياب أصدقاء، وأناس أتعامل معهم منذ سنين، فلا تقلق، أمــا مصنع الصهر وإعداد القوالــب فإنه لا يبعد كثيراً عن تمنهنت، مسيرة ساعات فقط.

لم يشــعر دياب بأن حياته ســتتغير كلياً، وأن ابنته هبة سوف ينالها من هذا التغير الكثير والكثير.

ولأجــل ماذا ؟ لبضع مئــات أو آلاف، وما الثمن، الوطن، ألهذا الحد صغــر الوطن وقلت قيمته ليســاوي ألف أو ألفــين أو أكثر من الدينــارات ؟. هذه الكلمــات كانت آخر ما نبس بــه ضمير دياب، وآخر حديث بينه وبين نفسه قبل شروعه في مشروع الحلم الكبير.

غافل دياب ضميره، وألجم نفسه، وركض وراء هلاميات احميد، بدأ التوأمان الجديدان مشروعهما الخيري النير بتتبع خطوط أعمدة الكهرباء، وقص الأســلاك النحاسية، ونقلها لوكرٍ لتصهر فيه على هيئــة قوالب، وتجمــع الأطنان منها ثم يتــم تهريبها لإحدى دول الجــوار، ســارا على هذا النهج مــدة، وأهل القريــة والقرى والمدن المجاورة من مزارعين يشهدون كل يوم تناقص الأسلاك.

تســبب هذا في هجر المزارعين مزارعهم، مما جعل وســط القرى وميادينها تزدحم بالأهالي، وعادت الخربقة والسيزة وأم التخطي[1] إلى الميادين، فالزراعة هي الحرفة الأساسية لأهل القرية، والأسلاك في تناقــص، مما حمل بعض الأهالي على الجلوس، وبعضهم لجأ إلى توصيل الكهرباء (بالشّــبّيط) الأسلاك الشــائكة، وأيُّ خطر يلحق هذا.

(١) الخربقة والسيزة وأم التخطي: ألعاب شعبية بالحجارة تشبه رقعة الشطرنج.

ذات صائفــة خلع ديــاب واحميد عنهما لبــاس الإيمان والتقوى اللذان يرتديانه قبيل عملياتهما، إذ لا تفوتهما صلاة الديك، وحددا الوجهة.

ـ علينا الإسراع يا احميد، فالمزرعة بعيدةٌ نسبياً، ونحتاج للوقت للعودة قبل عودة الشمس للظهور.

ـ حســناً، إني جاهز، أدوات الصعود للأعمدة جاهزة، الكلابات وجهــاز قيــاس الكهربــاء والقفــازات كلهــا جاهــزة، لم يبق إلَّا (القامجو)[1] الأزرق، وأنت يا دياب لا تنس (التوتة)[2] السوداء.

أعطــى ديــاب قبلة لابنته هبــة، وودع أمها الــتي أرغمها على الرجوع إلى بيت الزوجية، بعدما غادرته لبيت أبيها بســبب عمله المشبوه في نظرها، والذي لم يكشفه لها مطلقاً.

خرجا بعد ســاعة الصفر وتوجها شــرقاً، فالمــزارع الغربية قد وُضِعَــتْ عليها يدٌ لدياب واحميد آخرين، توجها رأسًــا إلى المزرعة المحددة.

(١) القامجو: لباس العمل.
(٢) التوتة: اللباس الرياضي.

قطع احميد سلك الكهرباء المتجه إلى المزرعة من الكيلو متر الثاني. قال دياب:

ـ المزرعة بعيدة.

ـ ولماذا ابتعد بها صاحبها إلى هذا الحد ؟

ـ هههها.. ربما يزرع فيها الترفاس، أو يخاف عليها من العين.

ـ قلت لي يا دياب إنها مزرعة جديدة ؟

ـ نعم وليس فيها أثر الخضار، إلَّا بعض شجرات النخيل الصغيرة.

أكمل الفريق الثنائي نزع الأسلاك من الكيلو متر الثاني حتى المزرعة التي تبعد عن القرية تسعة عشر كيلو مترا، ولم يسلم حتى كابل المضخة، وضعت الغنيمة في السيارة، لم يعودا للقرية؛ بل توجها رأساً إلى المكان المخصص للصهر، وعليهم أن يقطعوا عشرات الكيلومترات في تلك الصحراء بكثبانها الرملية، غير أن الرياح لم تأت كما شاءها الربان، كان الموعد مع عاصفة رملية شديدة، يسمى هذا النوع من الرياح بالرياح الحمراء فهي طينية، تحمل الطين معها من مئات الكيلومترات، بل الآلاف، لأن المعروف عن هذه

العواصف أنها تهاجر عبر القارات، إنها تحجب الرؤية تماماً، تاه دياب واحميد، وظلا يسيران في دائرة، حل الصباح ولم يشعرا به، تعطلت السيارة، لم يكونا قد أعدا العدة من مياه وما شابه.

هدأت الرياح بعد غروب الشمس قليلا ثم استجمعت قوتها وعادت، لم تكن لهما دراية بالنجوم حتى لو تمكنا من رؤيتها، أخذ الجوع والعطش منهما مأخذاً، ومع تباشير الفجر الثاني استقلا قدميهما وراحا يخمنان طريق العودة للقرية، سارا في طريقٍ متعرجة، انطلقت عيونهما في كل الاتجاهات، محاولة الاستشعار عن بعد نخلة أو مئذنة أو حتى غراب، يبدو أنهما اتخذا طريقاً ثالثاً، أنهكا تماماً، واستسلم احميد لمصيره؛ إذ فقد سمعه من شدة العطش، لكنه واصل طريقه زحفا، ومما زاد مقاساتهما لون اللباس الغامق؛ فقد استنزف من جسديهما السوائل، ولو خلعا اللباس لاحترقا من شدة تلك الصائفة، أما دياب فقد واصل المسير في غير طريق احميد، وبعد عدة كيلومترات تائها فقد سمعه كذلك، لكن الأمل انفجر أمامه، رأى ما يشبه الأبنية، أو الأشجار، أو النخيل، جر رجليه خلفه، وصار يحبو ويحبو، وضحت المعالم، إنها مزرعة، وبها بعض النخيلات الصغيرة تسبح في بحرٍ من الرمال والغبار، لا

زال كيلــو متراً واحد بينــه وبين الماء، بعد ســاعة من الحبو وصل دياب البئر، ضغط على زر تشــغيل المضخة فإذا طرف الكابل بيده، والأعمدة بلا أسلاك، هنالك زفر أنفاسه الحارة على سلك نحاس.

عندما لا ندري ما هي الحياة، كيف يمكننا أن نعرف ما هو الموت.

كونفوشيوس

(١٣) صدق وعده

لم ينقذ دياب من الموت إلَّا موت احميد صديقه، فقد التقى أحدهم احميد على حافة الحياة، جرته رجلاه ويداه إلى الطريق المؤدية إلى طرابلس من الشمال الغربي لبلدة تمنهنت، وجده بالقرب من الطريق، أعطاه الماء، فلما رأى احميد الماء عب منها مثل البعير ولم يرتو وظل يشرب ويشرب، وآخر حسنة قام بها تذكره رفيقه دياب والإخبار بأن له صاحبا ولا يدري مكانه الآن، قال هذه الكلمات وترك رفيقه وغادره إلى غير هذه الدنيا، تنادت الجموع بحثا عن المفقود، وتم العثور على دياب نصف ميت، العينان تتحركان بلا رؤية، ولا سمع يذكر، فأسعف ببل شفتيه شيئا فشيئا، حمل إلى مستوصف القرية.

أقعدته هذه الحادثة ما يقارب السنة، فدرجة الجفاف التي

تعرض لها أوقفت الكثير من أجهزة جسمه وخلاياه، في هذه السنة كان أكثر التصاقا بأسرته، لا يغادرون عنه ولا يغادر، لكن شيئا من الغلظة عاوده بعد أن استراح، ربما لأنه أصبح يشعر بالتحسن وقرب انفكاكه من البيت وقعدته، وأطلق دياب العنان لنفسه من جديد بعد أول سفرية له إلى طرابلس، وقد أتى بسيارة (مرسيدس) بقيت عنده لأيام ثم باعها ليكسب على ثمنها خمسمئة دينار، رجع بعدها إلى طرابلس، ليحضر نفس النوعية من السيارات وربح فيها ما كتب له، فاعتمد نهج الرحلات هذه، وخاض في جميع الأنواع من السيارات، لكن سفره من سبها إلى طرابلس ليس فيه ربح مادي، بالعكس فربها استأجر سيارة أو غير ذلك، فأخذ يفكر:

ـ لما لا أستغل سفري إلى طرابلس لبيع أي شيء هنالك، فالمنشار لا ينشر الخشب في اتجاه واحد.

من هنا جعل المنشار قدوته، وبحث عن نوعيات محددة من السيارات أخبره بعضهم أنها مرغوبة أكثر في طرابلس والشمال بصفة عامة، لأنه من المشاهد أن بعض المدن يكثر فيها هذه النوعية من السيارات أو تلك، يكاد يكون هنالك توكيل أو عقد احتكار لسيارة بعينها في مدينة بعينها.

وجد دياب ضالته، وقد اشـترى تلك السـيارة بثمن متواضع من بائع لا تبدو عليه الاستقامة ولا ترتسم على وجهه بادرة خير، لكن سـعره مناسـب جدا، دفع دياب ثمن السيارة ودفع بها إلى طرابلس لبيعها هنالك، فالسـيارات القادمة من الجنوب تكون مرغوبة أكثر عادةً؛ ذلك لانعدام الرطوبة وخلوها من الصدأ؛ بفعل لهيب الصحراء وصَهَدِهَا، فلا تصدأ السـيارات. فتشـجع وبدأ البحث والبحث عن المزيد من السيارات.

بهذا فتح له باب آخر (للبِزْنِسْ)، فأخذ يسـافر بسـيارة ويعود بأخـرى، حتـى أصبح موزع سـيارات ورابطا ما بـين شمال البلاد وجنوبهـا، فلازال على هذه الحال حتى خطـرت له فكرة مضاعفة الربح وذلك بأخذ ركاب معه إلى الشـمال، غير أن حمولة السيارات التي يشتريها ويبيعها في الشمال لا تزيد على شخصين، فهي سيارات شحن بضائع وغيره، لكنه استدرك أن الأفارقة لا يهمهم أن يستقلوا سـيارة فارهة أو غير ذلـك، ما يهمهم هو الوصـول إلى وجهتهم، ويفضلون السفر جماعات، الأمر جيد بالنسبة له، فالسيارة تحمل في صندوقها ما لا يقل عن عشـرين راكبا، ولأن الأمر في مجمله مخالف للقانون فإن السـعر سـيكون بحجم المخاطرة، كان يجَمِّعَهُم في نقطة

يكثر فيها نبات الديس بشكل كبير، فيكوِّنُون أجمةً يربضُ فيها العشرات إلى حين مناداتهم بأرقامهم، فكان يأخذ معه مجموعة كلما اتجه شمالاً، حتى أتقن اللغة الفلانية والهاوسا[1]، فزاد ربحه وتوسعت تجارته حتى صار يستأجر السيارات لحمل الأفارقة، بدلاً من المركبات المسروقة من الجنوب ذات الأسعار المتواضعة، ولم يوقف تجارته في السيارات، بل ظل راعيا لها ومشجعا وداعما وغاضا للبصر مع ما يتوافد عليه من غيوم سوداء من قارة السمر تحمل ذهبًا وفضة.

ذات شفق وبعد أن أكمل الحاج حسن العابد إطعام ماشيته بما كتَّبَ الله لها من قَضْبٍ وعقول [2] وما فَضَلَ من فتات الخبز اليابس، وبعد أن أطفأ المضخة صعد إلى سيارته التيوتا (هايلكس)، وعند وضعه المفتاح ليشغل المحرك وضع أحدُهم مسدسَه على رأس الحاج حسن العابد، حاول الحاج حسن المقاومة، لم يمهله، أطلق على رأسه رصاصة، وسحبه للأسفل، سرقت السيارة التي لم يفرح بها العابد كثيرا، فقد اشتراها قبل أسبوعين، ليفارق هو وسيارته الأسرةَ التي

(١) الفلانية والهاوسا: لغات أفريقية ذات انتشار واسع بأفريقيا.

(٢) القضب: هو البرسيم، والعقول: نبات شوكي صحراوي واسع الانتشار في العالم.

تضُمُّ سبعةَ أفرادٍ، وبهذا يفارق الدنيا آخر حائك للديس في قرية الديس والتاليس [1].

في ناحية أخرى من القرية وفي وقت لاحق كان لدياب موعده مع أحدهم، فالواحدة ليلا هي موعد الانطلاق بما لا يقل عن خمسة عشر من الأفارقة، سيحشرون في صندوق السيارة مع أمتعتهم، أخذ دياب السيارة، وكان الأفارقة على الموعد فاعتلوا الصندوق وافتتحوا طريقهم ببعض التعاويذ الأفريقية، ولم ينس دياب مسدسه الذي يرافقه ما دام في الطريق ولا (الكِمِّيَّة)التي وهبها له إسحاق التشادي، خوفًا من غدر الأفارقة له،وبعد تخطيهم ما استسهل من طريق صحراوية دخلوا إلى الطريق المعبد، وقد جهز دياب إكراميات البوابات، وبعد اجتيازه منطقة مزدة واجتيازه عتبة الظلمة تفقد بعينيه السيارة، فلم تكن غريبة عنه، نفس العلامة التي تركتها ولاعة السجائر على المقود، فهو من قد أتى بهذه السيارة من الشمال قبل أسبوعين بطلب من صديق والده الحاج حسن العابد، هنا تحرك الفأر في جلبابه، وإن كان لا يبالي بالمسروقات عادة إلَّا أن هذه السيارة لصديقه، ولربما

(١) التاليس: أحد أنواع التمور الممتازة في الجنوب الليبي.

تعرض للأذى من قبل السارق الملقب بـ (المارطو)، لم يبق عن طرابلس إلَّا ساعتان ومئتان من الكيلومترات، لكنها طالت واتسعت في ظل قلقه على الحاج حسن العابد، وحين وصوله اتصل وتقصى من بعيد وعلم أن الحاج حسن قد وُجِدَ مقتولا في مزرعته، فانهار به جلدُه وقوتُه وغلظتُه، بكى ببعض دمعات على صديق العائلة المقرب الذي طالما حمله وهو صغير وداعبه وهو يافع ومات على يده آخرِ المطاف.

أخذ يردد بلا وعي:

يَحْزِمُ الدِّيسَ ويرقى في السَّماء..

يا رسولَ الديسِ عُدْنَا بالنماءْ.

يرفعُ الكفين شَيْخٌ.. ويشِي بالسِّرِ طفلٌ

في مرايَا حَرْفِهِ سِرُّ الدعاءْ.

بقي في طرابلس لأسبوع، وبعد تفكير طويل أرسل بطريقة متخفية معلومة بأن قاتل حسن العابد هو الملقب بـ (المارطو)، وتحفظا على نفسه قرر أن يبقى في طرابلس مدة أشهر، لكن تم استدعاؤه في القضية نفسها، (فالمارطو) بعد أن تم القبض عليه اعترف بما كان، وأقر بأنه سلم السيارة إلى دياب، لكن دياب كان

قد رتب كلامه ورسم خطة الخروج من المأزق ونفى كل ما وجه إليه فقال في التحقيق:

ـ ولكني يا حضرة الضابط أنا في طرابلس من الصباح، خرجت على الطريق العام فركبت مع أحد المسافرين، لا أعرفه، توقف لي بالصدفة، ليكسر ملل الطريق، لأنه كان مسافرا بمفرده، وقال إنه لم ينم الليلة السابقة ويخاف من أن يتملكه النعاس ففرح بمرافقتي له.

ـ وهل عندك شاهد على ذلك ؟

ـ لا أعرف هل رآني أحد ذلك الصباح، ولم أنتبه لأحد لأني كنت في عجلة، كنت أريد الوصول قبل الثالثة ظهرا إلى طرابلس، لأستقل سيارة أخرى لزيارة صديق، وبإمكانكم الاتصال به للتأكد.

لم يكن للمارطو شهود على تسليمه السيارة لدياب، غير أن أتباعه جعلوا همهم النيل من دياب، كان ذلك التهديد دافعا قويا لتغربه في طرابلس فاستأجر دياب منزلا صغيرا في ضواحيها، وشيئًا فشيئاً أكمل عملية انتقاله إلى ذلك المنزل مع أسرته، وكاد يسف التراب ندما على تورطه في مقتل الحاج حسن العابد ولو عن غير قصد، لكن طرابلس كانت أكثر راحةً له؛ على الأقل لن تطارده روح الحاج حسن العابد ولا أوباش المارطو.

ربما تكون رسالة واحدة كفيلة بأن تهبك رؤية للعمــر، وربما تكون هنالك جملٌ قليلة تعطيك آفاقا لا تنتهي.

فرجينيا وولف

(١٤) كونتا كينتي

التقــط ديــاب أول تحية، ولم تكن في الأســاس له، كانت لذلك الرجل الذي يجلس في طرف الصالة، يقضم أظافره، تتكئ عيناه على كرســي خالٍ أمامه؛ ليزيد عقله في فســحة وسرحان، يقرص إحدى عينيه قليلا، ويشــد وجنتيه لأعلى. نصف إغفاءة، التحية اصطادها دياب ليبادر بفتح الحوار ليشُــقّ ظهــر الرتابة والملل، فذلك المتكئة عيناه على الكرســي لم يبد أي اســتجابة لنحنحة دياب، فالرتابة عادة ما ترافق مجالس الرجال؛ فهم أقل انســجاما من ربات الجمال اللاتي ما إن يلتقين بغريبات حتى يبدأن بتبادل الأســرار، وتنفرج أمامهن الغربة.

يعرف ديـــاب أن التحية وإن كانت عامة إلَّا أنها لم تكن له؛ بل للجالـــس على يمين صالة الانتظار منفـــردا، لم يعر القادم دياب أي اهتمام ولم يلتفت إليه؛ بل جلس بجانب ذلك الرجل وأخذ يحادثه:

ـ كيف حالك يا رضوان ؟ لي فترة طويلة لم أرك فيها.

ـ بخير والحمد لله.

ـ كيف حال الحاج صابر والدك بعد العملية ؟

ـ اييييـــه... الحاج صابر لا يتقيد بتعليمـــات الطبيب،ومقولته التي على لســـانه دائما: الإنسان طبيب نفسه، وقد قلت له يا والدي إني ســـأتكفل بتنظيم مواعيد الأدوية، لكنه أصـــر على عدم تناولها بانتظام، وقد ترك بعضها بحجة أنه لم يعد يشعر بالألم.

سمع دياب المحادثة، وعلم اســـم الشـــخص واسم والده ومهنته ومرضه، خزنها في ذاكرته ولم يدر ما ســـيفعل بها، لكن خبرته في إدارة المواقـــف علمتـــه أن يقيد أي معلومة، ويمكنـــه التخلص منها بتجاهلها بعد فترة، اعتاد على الاحتفاظ بأي شيء، فلربما احتاجه يوما.

جلس وأراح رقبته بإســـقاطها على الحائط خلف رأســـه وأرسل

نظـره متتبعًا خطوط السـقف المعلـق وتعرجاته وكأنـه يحل لعبة المتاهـة، نادت الممرضة على الرقم الذي سـيدخل وانتظر هو دوره، خـرج رضوان مـن حجرة الطبيب، أشـار له دياب بلغـة حاجبيه بالرفع، مردفًا بلسانه:

ـ إن شاء الله لا باس عليك سيد رضوان.

ـ لا أراك الله بأسا.

قالها رضوان وقد قرن حاجبيه مستغربًا ومتسائلاً: من أين عرف اسمي. فأجابته الذاكرة بأنها إحدى سقطاتها المتكررة.

دخـل دياب حجرة الطبيب حاملا ملـف ابنته الطبي والتحاليل والتقارير السابقة عن حالتها المستعصية.

بعـد أيامٍ صـادف أن التقيا في مدخل العيـادة ذاتها، بادر دياب بالتحية.

ـ أهلاً سـيد رضوان. كيف حالك ؟ وما أخبار الحاج صابر ؟ وهل تعافى من بعد العملية ؟

ـ في تحسـن والحمد لله. لكن اعذرنـي.. لم أعرفك. والعتب على الذاكرة.

ـ معقولة يا رضوان نسيتني. أم أن الأصحاب أصبحوا معارف.

أثمرت عملية الإنصات، ونجحت الذاكرة في إطالة أمد المعلومات، ومما اقتنصه من تلك المحادثة أن أبا رضوان يمتلك شاحنة ويشتغل بها على خط طرابلس والجبل الغربي، وأحيانا إلى الجنوب إذا صادفت شحنة مضمونة مع شحنة أخرى يعود بها من الجنوب.

لم يطل الحديث معه، ولم يضمر الشر في لقائه برضوان، في ذهنه أنه أمضى بضع دقائق من المتعة التي يجيدها في خداع الناس وإيهامهم بما يريد، وهذا ما تعوده مع رفاقه. في هذه الأثناء كانت ابنة دياب تصارع المرض، تزفر مع كل نفس آلامها، ويعتصر جنبيها ما يعجز الكبار عن تحمله، وقد طاف بها عدة عيادات، وأطيافا من الأطباء، وجميعهم أكد على الجراحة لتخليصها ممن تعانيه.

حالة دياب المادية جيدة، وذلك من ريع الفقر والمجاعة في القارة السوداء البائسة بأهلها، ممن فر من قتر العيش إلى نعيمه الموعود، وكأنهم يلحقون بنعمهم وخيراتهم التي استولى عليها آباء الأوروبيين وأجدادهم سنين الاستعمار القديم، ولم يكن دياب على دراية بما يعانيه الأفريقي حتى يصل بجلده إلى ليبيا، ليتزود منها بعض الآلاف من الدينارات، يدفعها لمن يتكفل بإيصاله إلى الساحل

ومــن ثم إلى أوروبا، هذا الألم والمعاناة كالألم والمعاناة التي تعيشــها ابنته، ســعى في علاجها، حدد العيادة والطبيب، ولكن الســاعات التي ضمنــت للابنة بعض الراحة أو الهدنة مع المرض هي نفســها الســاعات التي لم تســعف الوالد ليحضر ابنته وهي تترك زهرةً في موضعها، لتقطف أزهارًا في غير دنيا وغير زمان.

مكث ديــاب يومًا يســتقبل فيه العزاء ممن تعــرف عليهم ومن جيرانه، ثم استقل ســيارة إلى الجنوب ليستقبل العزاء بين أهله في القرية.

التقى في زيارته معظم رجال القرية، ولم ينس صديقيه القديمين سَاسِــي وعاشــور، رجعت صداقتهما كســابق عهدها مع شــيء من التحفظ من قبل عاشــور الذي وصل في تلك الأيام راجعا من الشــرق، حاملا معه عبق (المرج) وشــذى (شحات) وشيئا من أكاليل (درنة). تحدثوا كثيرا عن أمور حياتهم بعد أن ذهب كل منهم في طريق.

لم يســتطع دياب أن يتجاهل حنينه إلى تلك الديار التي شهدت الشــعاع الأول الذي دخل عينيه معلنا وجوده كإنسان جديد، توجه إلى المدينــة القديمة مصطحبا أحب كبار الســن، مــن الذين لا تزال ذاكرتهــم تنبض بالحنــين والذكرى، ولا زالوا يتنفســون عبق تلك

الأيـــام، فلازالت في أنوفهـــم رائحة البخـــور، وبصماتهم لم تفارق جـــدران الســـقيفة، وآثـــار جذوع النخيـــل لا زالـــت أخاديدها على سيقانهم، كان يستمتع بذكر الوقائع التي دارت يوما في هذه الزاوية أو تلك، وكان يذكره بالحاج حسن العابد وبراعته في صناعة الحصر، وكيف أن الديس بين يديه يكاد أن يتكلم أو يغني.

غـــادر الجدران القديمـــة والزوايا والدكاكـــين البالية التي كانت مجالس أهله الطيبين يوما ما، غادرها إلى البســـاتين والجنائن التي كانت فيما مضـــى مزدهرة بأهلها ونفحاتها، فاســـترجع باقات من أغانـــي العلم، ومآثر الأجداد، الذين انتهـــت بهم أيامهم، ورحلت بهم خطى العمر والســـنين. مر تقريبا على معظم الأماكن والبساتين وكأنه يودعها للمرة الأخيرة.

حزم دياب أمـــره وعزم على العودة في الصباح إلى طرابلس، فلما تخلصت الشمس من حمرتها واستطاعت الإفلات من رؤوس الأشجار وقمم الجبال أفلت هو من فراشـــه وخرج إلى الطريق، وقف جانبًا إلى أن مرت أول ســـيارة، وكانت شاحنة لا يكاد يتبين نوعها مما يحيط بها من التـــبن وغيره من علف الحيوان، قفز دياب إلى المقصورة قبل أن ينظر إلى وجه الســـائق، بعد قليل نظر، تمالك نفسه حين وقعت

عينه على وجه السائق. هو رجل في بداية الخمسينات تعلو وجهَهُ مسحةٌ من بؤس،عيناه تكاد تخرج من محجريهما، ذو لحية تظهر من خلال عمامة فقدت بياض لونها، فصارت إلى أديم الأرض أقرب، فيه ريبة وشك، غير مريح البتة، أصاب دياب على الفور تردد لكن الشاحنة انطلقت، فلم يكن منه إلَّا أن يعيش اللحظة بما يقتضيه الموقف، طمأن نفسه بأنه سينزل في أول مدينة ليتابع سفرة مع سيارة أخرى. على الأقل لن يكون وجه صاحبها جدارا لزنزانة نقش عليه المساجين أسماء حبيباتهم.

نظر السائق إلى دياب نظرة كولومبس؛ ليستكشف شخصية الرجل الذي قفز إلى مقصورة الشاحنة بهذه السرعة، سأله بعينيه.. من تكون وأين تريد وما شأنك ومن أي فصيلة أنت ؟ أجاب على التساؤلات التي تتقافز من عينيه الجاحظتين، لكنه مهد للإجابات بسؤال بديهي وضروري في آونتها.

ـ هل الطريق آمنة هذه الأيام ؟ لقد رجعت من طرابلس الأيام الماضية وكان بها بعض التوتر.

ـ هي كذلك.. بها توتر، لكن لا يهم، الموت واحدة، وقاطع الرأس خالقه،... اسمي عمر الحداد، من سبها، من أين الأخ ؟

ـ من الحميدية، اسمي دياب.

ـ وأين تقع الحميدية هذه ؟ لم أسمع بها من قبل.

ـ إنها تمنهنت.. هي نفسها. لها اسمان الحميدية وتمنهنت.

ـ نعم نعم.... هي بلاد الديس والتاليس.

ـ هي بذاتها.. التاليس ليس موسمه الآن. لكن الديس في أي وقت يمكن أن تحزم منه كما تشاء.

ـ هههههه وما أعمل به.. حتى الأغنام لا تأكله.

ـ نعم ولكننا نحن نأكله.

ـ أتأكلون الديس ؟

ـ هههههـا.. لا لا. بثمنه نأكل، بثمن الحصير الذي نصنعه من الديس.

كان حصير الديس أنسب فراش، برغم الخطوط التي يتركها على الجسـم إلَّا أن له راحة. فهو من الطبيعة، من أديمنا، تشتم رائحة الأرض في عيدان الديـس، فلا تملك إلَّا أن تملأ رئتيك بالهواء الذي يحمل تلك الرائحة، كما حمل حديث الديس سلسـلة من الأحاديث

بين دياب والحداد تخرج الأحاديث لتقضم الطريق ولو عشرة كيلو مترات كل حديث أو حكاية، وما يقطع الحديث إلّا النظر بدهشة مستدامة إلى تلك (الغرود) الكثبان الرملية، تلك التي تقطع سلاسلها الطريق في أماكن متعددة، والمثير فيها أنها على ضخامتها تنتقل في غضون ساعات، فلا عجب أن تجد في الصباح كثيبا من الرمال رابضا على الطريق والسيارات من الجانبين تنتظر حلا لتواصل طريقها، حتى إن الجرافات الهائلة اتخذت من تلك المناطق ميدان عمل لا تغادر مكانها بذلك الذهب المتراكم إلّا لتفسح ممرا لتكمل المركبات مسيرتها من هذه النقاط المختنقة بالرمال.

تابع الرفيقان طريقهما بعد أن تخلى دياب عن فكرة النزول في أول قرية أو مدينة، ذلك للارتياح الذي أوحى به حديث الحداد وحكاياته المشوقة، كما ارتاح الحداد نفسه للحديث برغم بطولات دياب وأساطيره التي يُنَصِّبُ فيها نفسه البطل في كل رواق.

اختفت الرمال من الأنظار، وبدأت أشجار الطلح تتكاثر بجانبي الطريق، وجميعها عارية الأغصان من الأسفل لمسافة مترين أو أكثر، نزعت الإبل التي تجول الصحراء عنها لباسها من أوراق وأشواك، اختار الحداد سائق الشاحنة شجرة بعيدة نسبيا عن الطريق، نزلا

ليستريحا وليظفرا (بطاسة)[1] شاي خضراء، انطلقت رائحة الشاي بالنعناع لترسم في مخيلة مستنشقها لوحة أيام كان (للشاي) طقسه الخاص ونكهته ورائحته المتميزة التي تشي بمن يُعِدُّهُ في أرجاء القرية وأطرافها فيتقاطر أهلها ليحظوا بطاسة منه، وكما يفيد كبار السن فالقضية ليست في تلك الرشفات من الشاي؛ بل في ذلك الإحساس بالأنس والاجتماعية والشعور المتبادل بالمودة بين الجيران، فيلتقون ويتبادلون الأحاديث، ومن يتغيب يُفْتَقَدُ ويكون موضعَ سؤال من الحاضرين، طبعا عن حاله متمنين أن لا يكون قد أصابه مكروه، تلك هي حالهم المصاحبة لكأس الشاي في أيام الأوَّلين.

وقد تذاكرها الرفيقان وهما يترشفان ما كتب لهما؛ ولأن مسافة الطريق وطولها لا تترك للمسافر لذة الاستمتاع التام، فإن الهَمَّ الذي يحمله كل مسافر هو قطع المزيد من الأميال، فقد هَمَّ كل منهما بلملمة الأغراض ليواصلوا المسير، فمنطقة (الشويرف) التي استراحوا بها تَقْسِمُ المسافة إلى طرابلس لنصفين. استدارت الشاحنة بوجهها إلى الطريق، في اللحظة نفسها مرت شاحنةٌ أخرى لنقل المواشي ذات طوابق ثلاثة، لفتت تلك الشاحنة نظرَ دياب، تركت في ذاكرته

(١) طاسة: كوب الشاي.

بصمة، مَسَحَ تلك الصورة وهو يردد مقطوعته:

يحزم الديس ويرقى في السماء..

يا رسول الديس عدنا بالنماءْ.

يرفع الكفين شيخ...

قاطعه الحداد قائلاً:

ـ ما هذا الذي تردده، قَلَبْتَ به رأسي منذ الصباحْ.

ـ لا تهتم.. إنها بقايا في الذاكرة من هنا وهناك. لكنها الآن أصبحت لي وجعا يذكرني بعزيزٍ رَحَلَ، ستظل معي وستسمعها حتى يأتي ما يزيحها من أغنية أُخرى.

ـ غني براحتك... نستمع ونستمع، فالطريق طويلة يا صاحب.

دخل الليل من أطراف الأرض، وضاقت مساحة الرؤيا، حتى أصبحت لا تتجاوز ضوء الشاحنة لأمتار أمامها، لكن سائقها الحداد ودون مقدمات أوقف الشاحنة مبررا بأن شيئا ما دفعه لإيقافها فجأة، هنا اشتغلت نظرية المؤامرة التي طالما طبقها دياب على مواقفه المختلفة وقد أنقذته كثيرًا، انقلبت صورة الحداد في ذهنه إلى ذلك المعتوه الغدار الذي لا يؤمن جانبه، حدثته نفسه بأنه لربما

كانت مكيدة من صاحب الشاحنة الذي لم يمض على تعرفه به أربع وعشرون ساعة، قد تكون هذه هي الفرصة التي كان يتحينها منذ أن قَفزْتُ إلى مقصورته، لا شك أنه يعرف كيف يخطط ويستدرج صيده لينال منه، ثم قطع الحداد هذه الأفكار بقوله:

ـ لا تستعجل يا دياب. دقيقة فقط وينتهي كل شيء.

لكن الأفكار رجعت والمخاوف تأكدت، فقال في نفسه: إنه يقصد ما يقول، نعم هي دقيقة وينتهي أمري، فضربة من حديدة على رأسي تنقلني لعالم آخر حيث المرحوم حسن العابد، تحسس دياب خنجره (الكِمِّيَّةَ) التي لم تفارقه منذ زمن، جهزها للخروج في أي لحظة مريبة من هذا المجرم السفاح الحداد، لكن عفوية الحداد كانت لها الغلبة.

تفقد السائقُ الشاحنة وحدد مصدر الصوت الغريب في الجهة اليمنى، ولكن ما باليد حيلة، سيتابع الطريق حتى وصوله المدينة ويتفرغ لإصلاحه، واصل المسير خطوة بخطوة، عندها استسلم دياب لرسائل السلطان فنام بعين، وظلت الأخرى تحصي الشجر الوهمي بجانبي الطريق، حتى قشعت الشمس آخر شجرة، لكنه لم يستطع أن يقشع عن مخيلته صورة صديق والده حسن العابد، فكم كان يقلده

أمــام أمِّــهِ وأخواته، فيجلس علــى الأرض ماداً رجليــه متوازيتين أمامه، ويحني ظهره قليلا، وكأنه يمســك بين يديه وأصابع قدميه جدائــل الديس، ويغمض إحدى عينيه ويعقد ما بيين حاجبيه قائلا لوالده:

ـ اسمع يا حاج.. (التعب على نعجة هو نفسه التعب على خمس نعاج، والتعب على خمسة هو نفسه التعب على خمسين نعجة).

يقف المشــهد هنــا ويرتفع حاجبا دياب ليشــكلا هلالين وينطق بصوت فيه لمحة من خبث ودهاء.

ـ كونتا كينتي.. القارة السمراء.

فتحت نافذة في مرأى عقله أطل منها صاحبه التشــادي (إسحاق) الذي قص عليــه قصة عمه عندما قتل لبوة وبعدها قتل ابنه في اليوم نفســه بصحراء تشــاد. لم تغلق هذه النافذة حتــى أحدثت في نفس دياب وعقله زوبعة تمتد من الصحراء إلى الساحل.

شـعورك بالتفـاؤل يعني أن هناك شـيئًا جميلاً قادم.

باولو كويلو

(١٥) هِنْت

أطلت سـنوات ما بعد الدراسـة بنوع آخر من المشـاكل، وطعما آخر مـن الصعاب، وأصبحت تخالجهم ذكريات الدراسـة بجمالها وإن لم يكن لها جمال يذكر، فعاشور قد مرت سنين دراسته بأجمل مـا يكون، غير بعض التنغيص بسـبب الحالة الماديـة، لكنها بأي حال من الأحوال بدأت في الانفراج بعد حصوله على عمل في شـركة نفطية، فقد أوفى الحاج (برَيِّكْ) بوعده بشأن تأمين وظيفة له في حال تخرجه، وكان الراتب فوق ما كان يحلم به.

أخذ يرسـل بعضه إلى أسـرته التي تَنْخَـرُ أساسـاتِها الأَرَضَةِ كما تنخر أعجاز النخل؛ بسـبب العَـازَةِ والفقر، ولاحت له بوادر الانشـراح أكثر بتعرفه علـى بعض الأجانب في الشـركة النفطية،

فكانــوا له كالنافذة الــتي يطل من خلالها على العــالم الغربي بكل ما فيــه من تمدن وانفتاح، وبــكل ما تنتجه العبقريــة الغربية من نظريات في على النفس، فقد كان شغوفًا جدًا بعلم النفس، يعد نفسه من تلامذة مدرسة ســيغموند فرويد، وقد أطلعه غربيوه بكل شاردة وواردة، وكيــف أن الفــرد عندهم يتمتع بالحريــة المطلقة، تعبيرا وتنقلا وسبًا للرئيس أو لعنًا للحكومات المتعاقبة، ومما تاق لتحقيقه أن حقوقه كإنســان محفوظة له، كيــف لا وللحيوان حقوقه أيضًا في بلاد الغرب العظيم.

وكان كلما أشعلوا فيه جذوة عشق لعبقرية الغرب وعظمته خَبَتْ عنــده مئات الجذوات نحو وطنه، لا كرها للوطن؛ بل شــفقة عليه، وزادت عنــده نظــرةُ الدونية لأهلــهِ الذين لم يعرفــوا كيف يبنون وطنا، في هــذا الوقت أخذت النزاعات تنشــب بينه وبين (هِنْت)، تلك الحبيبة اللطيفة التي لم يكن ذنبها إلَّا أنها أرادت عاشــور لها وحدهــا، أحبته وكرهت فيه نزعته الثقافية التي تزيد من حط قدر أهلــه ومجتمعه عنده، فهي تــرى أن الحب الذي مــن المفترض أن تتمتع هي به قاسمتها فيه بلاد الغرب بما فيها من دهشــة تسلبها هي أيضا، لكن ليس كحالة عاشــور الــذي لا يتكلم إلَّا بفكر الغرب وثقافته.

قررت مرة اختبار حب عاشــور لها وتمسكه بها، فأرسلت إليه رســالة تعلمــه فيها أن أحد أبناء عمِّها تَقَــدَّمَ لها، وأن أباها كان في موقفِ حَرَج، فهو لم يســتطع رد ابن أخيه، خاصة وأن عاشــور لم يتقدم رسميًّا. وأخبرته في رســالتها أنه لو تقدم لخطبتها لكان عند أبيهــا الحجة لرد ابن العــم. كان اختبارا قاســيا للحبيبة هنت لا لعاشور. فقد رد عليها بهذه الكلمات:

(إلى «هِنْت». اعلمي أن الله تعالى أراد بكِ الخير، وليس عند الفرد مــا يقدمه لتغيير ســيناريو قد وضعه الله له، ومــا عليك إلَّا معرفة كيف استغلال هذا السيناريو والذي هو الخير كله، وعليك تحقيقه كمنجزات على أرض الواقع.

إن الحياة يا هنت أمل وألم وأمل، يعني ألم واحد وأملين، نســبة اثنين إلى واحد.. ويقولــون صاحب النصف رابح، فما بالك بصاحب الثلثين، وأنــت صاحبة الثلثين. لا تلتفــتي إلى الخلف إلَّا لتأخذي منه عبرة وعظة وخبرة. لا يعوقك عائق، ولا يبدد طاقتك حائل، ولا يخمد عزيمتك شيء. الشيطان يا هنت إذا عجز أن يجرك لسوء فإنه لن يفرط في أن تعيشي بقلق، فهذا يساعده في ظنه، لكننا مع الله وبالله نقوى ونتســلح ونتطلع إلى مــا يفيدنا، وإننا نحن من يخلق غدنا بما

نقوله في أنفسنا اليوم. فلا تقولي في نفسك إلَّا الإيجاب، إلَّا الخير إلَّا النجاح والفلاح. ولسان قلبك يلهج بالأمل في كل ركن وخطوة والتفاتة ونفس. هنا تكونين جديدة من جديد، تتفتق لك من الدنيا أزاهيرها، تزوجي بابن عمك. ولا تنظري إليَّ، فأنا لم أبدأ حياتي بَعْد، ولن أعيشها كما عاشها أبي وأهلي. وداعا هنت).

ابتلعت هنت طُعْمَهَا الذي رمته لعاشور، وعرف هو كيف يستغل الموقف، لأن تطلعاته لم تَعُد تستوعبها (هِنْت)، فهي أكبر من مِئَةِ هِنْتْ.

عندمـا لم يكن لديَّ ما أخسـره كان لديَّ كل شيء.

باولو كويلر

(١٦) الضفدع

أخرج عاشور حبيبته من جدوله وأزالها من تقويمه، ولم يستطع أن يكبـح جمـاحَ توقِهِ إلى أن يطعـن ويغرق في الغربـة أكثر وأكثر، وكان طموحـه يزداد يوما بيوم، بينمـا يزيد حنقه على وضعه، وإن تحسَّـَن ماديا بشكل كبير إلَّا أن توقه للعلم والمعرفة بلغ أوجه، تفتح عقله على بعض العلوم التقنية مع عدم وجود من يسـتطيع أن يشـفي نهمه المعرفي ويبسـط له طريقا للعلم، وأيضًا تأثره بزملائه الأجانب الذيـن صوروا لـه الغرب على أنه جنة تسـع كل العالم، ممن تضيق بهـم أوطانهم على رحبها، كل هذه الأمور لم تدع له بُدًّا من التفكير ومن ثَمَّ السـعي إلى أن يلتحق بالغرب بأي طريقة، خاصة وأن ظهور المشاكل مع أبناء عم حبيبته (هنت) أخذ يسلك منحنىً خطيرًا، وصل للتهديد له بالخطف وبالقتل، مما كرس فكرة النزوح شمالاً أكثر.

فأخذ يراسل السفارات الغربية طلبا لتأشيرة لأجل الدراسة، فهو لم يتحصل على فرصة للإيفاد على نفقة الدولة، وكانت جميع السفارات تشترط أشياء مثل القبول الأكاديمي في إحدى الجامعات الغربية، وضرورة وجود قيمة مالية كبيرة في الحساب الشخصي، وضرورة أن يرسل المصرف ما يفيد بذلك، مع التأكيد على ضامن في تلك الدولة يمكن استدعاؤه في أي طارئ يحصل، إضافة إلى معادلة الشهادات بعد تصديقها في أي سفارة يطلب تأشيرتها، واشتراط بعض السفارات إجازة من جهة العمل، ولم يستطع الحصول عليها، فيما لم يعجز عاشور عن الباقي، فخاطب معظم السفارات التي تقبل الوافدين، لكنها كانت تدور به في دوامة تمضي به بعيدا عن هدفه، فما كان منه إلَّا أن غير التكتيك، وقرر أن يذهب دون تأشيرة أو حتى جواز.

ومما زاد حماسه وتصميمه قصص المهاجرين التي تروى على كل لسان، فلم ير أن الأفريقي أفضل منه في شيء، ولا مهاجري دول الساحل أكثر صلابة منه، فقرر في نفسه أن يخوض البحر، عندما كان فتى كان يخشى المياه، ذلك بسبب أن أخوه الأكبر حاول إغراقه في المياه مازحًا معه عندما كان في السادسة، وكاد يغرق بالفعل يوم أن حاول قطع المسبح بالطول، لولا وجود صديقيه دياب وسَاسِي فأنقذاه

من الغرق، وهو اليوم يحاول أن يخوض المتوسط، إنها لنقلة كبيرة في العزيمة والتحول من جبان عاجز عن أن يقف في حوض الاستحمام إلى أن يقطع البحر ما بين قارتين على مطاط.

تأكدت فكرة الهجرة بينه وبين أحد المعارف، فتولى عاشور مسألة شراء المحرك الذي سيُثبتُ على الزورق المطاطي، بَحَثَ عنه في مدن الساحل مدينةً مدينةً، حتى وجد بُغيتَه، فيما تولى صديقه الحصول على الزَّوْرقِ، وقد كلَّفه ذلك بيعَ سياراته التي يمتلكها.

اشتراه من منطقة ساحلية بعيدة، واستأجر بحارًا لإيصاله، لكن ذلك البَحَّارَ اعتذر عن إكمال الرحلة حتى المنطقة المحددة، فهو يخشى أحد القراصنة والمهربين، ربما بينهما حسابات سابقة، فاضطر عاشور إلى استئجار وسيلة أخرى لنقل الزورق إلى نقطة الإبحار، كلفته هذه العملية الكثير من الأموال، فالعمل في شؤون الهجرة والتهريب على ما فيه من ربح لمتهنيه فيه من الخسارة والإنفاق السري لمن لهم حاجة في الهجرة، أو من يريد الامتهان بذلك. اضطر إلى بيع سوقِهِ الذي كان قد افتتحه في ضواحي طرابلس.

انتهت المرحلة الأولى من التجهيز، بقي جهاز (جي بي اس)، بحث الرفيقان عنه كثيرا ولم يتوفقا في تأمينه، لكن تسريب سرهما

مــن رفيقه أثمر بخــير، فانضم ثالث لهما، وقد كان لــه ثِقَلَه، كان ضليعًا بالبحر، وكيف لا وهو صاحب تاريخ في الضفادع البشــرية في الجيش الليبي سابقاً، ثم استقال واشتغل صيادًا مستفيدًا من خبرته الملاحية وما اكتنزه من علوم عســكرية، بهذا الثالث تم تأمين جهاز (جي بــي اس) ونصبوه قبطانًا لهم بحكم خبرته الســابقة ضفدعًا بشريًا وصيادًا، اختلفت ثقافات الثلاثة ومنابت تكوينهم الاجتماعي والعلمــي، لكنها اتفقت في مســألة هــذا الوطن الذي على اتســاعه وإمكانياتــه الهائلة وثرواته الطائلة عجز عــن أن يضمن لثلاثة من أبنائه ســنتمترات على يابسته، فارتموا على كفي الزمن، وأشرقت أنفسهم على غير جبالهم وأوديتهم، ليأخذهم بساط الريح.

غار في ذاكرتهم أيام الطفولة، أيام يتسابقون بقذف الحجارة على ســطح الماء، يعــدون قفزات الحجر على المــاء، ويتبارون أيهم يصل حجره أبعد من حجر الآخرين، وإن لم يفوزوا صغارا بهذه المنافســة فهم يدركون الآن أن حجارتهم كانت الأبعد، فهي تتعدى المتوسط، وربما تصل إلى بحر الشمال.

تم تحديد موعــد الانطلاق،الزورق المطاطــي جاهز، والمحرك مثبــت ينتظر حقن الوقود في جوفه، فالبنزين تم توفيره في براميل،

وهذا من اختصاص عاشور، أما رفيقه فقد جهز المواد الغذائية والمياه وبعض المستلزمات، فيما اهتم الضفدع البشري السابق بتأمين معدات الملاحة اللازمة وجهاز (الجي بي اس)، وسترات النجاة، وأعد كل واحد حقيبته، ومع أن عاشور كان قد صرف نظره عن حبيبته هِنْت إلَّا أنه اصطحب معه بعض رسائلها وصورة لها.

الموعد شروق شمس الجمعة، تأكد الرفاق من أشيائهم التي ستصحبهم، جهزوا المركب من الليل جاعلين له حارسًا لما تبقى من ساعات قبل بزوغ الفجر، صعد ثلاثة شباب، جعلوا أرواحهم على قطعة مطاط، وانطلقوا أمام أعين بعضٍ ممن كتب له مشاهدة ركوبهم البحر، شهق دياب نفس شهقة المسبح ساعة غرق، وقد وقَّعَ على الغرق في الحقيقة قبل أن يضع قدمه على المطاط، نظر الجميع نظرة وداع لم تطل كثيرًا، فما ينتظرهم أكثر أهمية مما تركوه وراءهم.

أخذ الضفدع البشري زمام القيادة آمرا الرفيقين بالجلوس، وعدم الاستهانة بالأمواج التي تبدو صغيرة لكن في غفلةٍ ما تجد نفسك أعلى موجة أو أسفلها، مع صعوبة العودة إلى الزورق وغير ذلك من أخطار، فاتمر كلاهما بالتوجيهات، بعد ما يقارب الساعة، وبعد أن اختفت معالم المدينة، واختفت أي صلة باليابسة ظهرت أول إشارة

على أنك لا تملك لنفسك إلَّا الدعاء، عرض البحر، حيث لا علامة تصادفك، ولا ما يتعلق به نظرك إلَّا بعض السحب التي تشبه أشياء مألوفة لديك، عندها ظهرت باخرة.

ـ انظر إنها باخرة، وهي علامة على أننا غادرنا المياه الإقليمية، أليس كذلك أيها القبطان ؟.

ـ ليس بعد. لا زلنا في المياه الإقليمية يا عاشور.

ـ سنتوجه نحوها وسنقترب منها، تمسكوا جيدًا.

عندما لاحظت الباخرة الزورق غيرت مسارها رأسا وابتعدت عن الزورق. لم يكن الرفاق ليخاطروا بأنفسهم في عرض البحر، فقد كان هدفهم العثور على بارجة أو سفينة إنقاذ لتكمل المسير بهم إلى الشاطئ الجنوبي لأوروبا، ولو أنهم لم يجدوا ذلك فإنهم سيعودون أدراجهم إلى اليابسة، محاولين مرة أخرى، فهذا كان تخطيطهم من البداية، فالضفدع أعلم بخطورة البحر وخاصة على زورق مطاطي منتفخ.

مرت الباخرة وتوارت بين الغيوم والأمواج؛ مما جَلَبَ لعاشور صورا من الذاكرة حينما قرر هو وثلاثة من رفاقه الرجوع من منطقة سمنو إلى تمنهنت على الأقدام، ظناً منهم أن المسافة إذا قطعوها

بخط مستقيم أقصر بكثير من الطريق المعبد، ولا شك أنها أقصر، ولكن أن تكون الأرض صحراء قاحلة فهذا يضاعف المسافة أضعافا وذلك بالسيارة، فما بالك بفتيةٍ على أقدامهم ولم يحملوا معهم حتى زجاجة ماء، الطريق المعبدة كانت ثلاثين كيلومترا بين سمنو وتمنهنت، انطلق الفتية سيرًا على الأقدام، دخلوا الرمال، وأصبحت أقدامهم تختفي في كل خطوة يخطونها، الحرارة كانت تزداد مع كل دقيقة، هاجمهم الجفاف في حلوقهم ثم وصل إلى أجسادهم، فكانت أرجلهم تَثْقُل وَتَثْقُل، لكن معرفتهم الجيدة بالاتجاهات ضَمَنَتْ لهم المسير في الاتجاه السليم.

ثم إن بروج الكهرباء العالية كانت تلوح لهم من بعيد، وتلمع في الأفق كخيوط العنكبوت، شعروا بالخطر مع صغر إنجازهم إذا قطعوا المسافة على الأقدام بينما يعرضون أنفسهم للخطر والمشقة، عدلوا عن متابعة الرمال وقصدوا بروج الكهرباء فهي موازية للطريق المعبد، أخذ تغيير مسارهم نحو الطريق عدة ساعات حتى وصلوا.

وصلوا ولكن أشباه بشر، كبر كل واحد منهم ستين سنة ذلك اليوم، وأخذوا يتوسلون الشاحنات لتقف لهم، وكانت كلما مَرَّتْ شاحنة أخذوا ينَطِّطُون ليثيروا انتباه السائق لكن لا فائدة، فلا أحد

يريد أن يورط نفسه بأخذ هؤلاء الفتية الذي يظهرون في منتصفِ طريقٍ قلَّ من يمر معها، فرأوا أن يقطعوا الطريق على الشاحنات.

أمسكوا بأيدي بعضهم بعضا وقطعوا الطريق، ستضطر أي سيارة للوقوف بهذه الطريقة، لمحوا شاحنة قادمة من بعيد، وتوزعوا على الطريق وأمسكت الأيادي بعضها بعضا، مما اضطر الشاحنة لتخفيف سرعتها من بعيد، نجحت الخطة، لم يتركوا أيديهم، وصلت الشاحنة وخفضت سرعتها إلى سرعة مشي الإنسان، فهم السائق أنهم يريدون الركوب، فأشار لهم بيده أن يصعدوا ويركبوا في الصندوق، ولم تتوقف الشاحنة بعد، ضحكت أعينهم وانفرجت شفاههم المتشققة من الظمأ، وتركوا أيدي بعض ليقفزوا كالقطط إلى صندوق الشاحنة، فجأة ضغط السائق على محرك الشاحنة فأخرجت كتلة كبيرة من الدخان الأسود على الفتية الظامئين وابتعدت مسرعة، وصارت تبتعد شيئا فشيئا، واختفت في تلك السحب التي خلفتها وراءها، كما فعلت هذه الباخرة التي تأكد الرفاق من أنها للشحن وليست حربية ولا سفينة إنقاذ.

بعد أربع ساعات من تحاشي الباخرة لهم ظهرت في الأفق باخرة أخرى وظنوا أنها للإنقاذ كما ظنوا الباخرة السابقة، فقرروا

الاتجاه نحوها، فلما تبين لمن بالباخرة أن الزورق يقصدهم استداروا وابتعدوا، فقرر السردين مطاردة الحوت العظيم، فزاد الضفدع البشري من سرعة الزورق، وحل آخر عقدة بحرية له،عندها سمعوا إطلاق نار صادر من الباخرة، وحينما اقتربوا أكثر تبين لهم أنها بارجة حربية، ولا يزال الزورق في المياه الإقليمية الليبية كما أخبرهم الضفدع البشري.

خاطبهم من على البارجة بمكبرات الصوت فلم يفهموا ولم يتبينوا ما يقولون، عندها خاطبوهم بالعربية وطلبوا منهم إيقاف تشغيل المحرك ففعلوا. لم تكن جوازاتهم معهم، فهم تعمدوا إبقاءها في بيوتهم خوفًا من مصادرتها في حال تم اعتقالهم، وهو أشد من الاعتقال، لأن الاعتقال أسو ما به أن تعاد إلى وطنك، أما مصادرة الجواز فيعني حرمانك من الدخول مجددًا لأوروبا، وإن تمت إعادتك لوطنك فستبقى دون جواز، وفي مشهد غير معروف الدافع أخرج الثلاثة طعامهم من حقائبهم وأخذوا يتناولونه، وكأنهم يحققون آخر أمنية لهم قبل إعدامهم. اقترب قارب منهم وبه جنود من البحرية الألمانية ومعهم امرأة، خاطبتهم قائلة:

ـ هل تحتاجون مساعدة ؟

ـ مساعدة ! مثل ماذا ؟

ـ وقود، أو أنكم ضعتم في البحر، أو أي شيء من هذا القبيل.

ـ نريد الذهاب إلى إيطاليا.

ـ أنتم لا تعرفون الاتجاه.

ـ أنتم من سيذهب بنا إلى هناك.

تواصلوا مع البارجة باللاسلكي، اقتربوا منهم أكثر، نزل بعضهم على الزورق وفتشوه، ومن ثم نقلوهم إلى قاربهم، ومضوا بهم إلى البارجة، وكم كانت ضخمة وهائلة، خيل إليهم أنْ لا سبيل للصعود عليها إلَّا عن طريق مروحية، لكنهم صعدوا، وبعد اعتلائهم البارجة قاموا بتفتيشهم مرة أخرى، وأودعوهم السجن، وضعوا في زنزانة مؤقتة، لم يدر أحد منهم المصير الذي ينتظرهم، وأكبر مخاوفهم أن يضيع جهدهم هباء ويتم إعادتهم من حيث أتوا، أي من نقطة الصفر.

بعد يوم من الإبحار على ظهر البارجة نقلوا إلى بارجة إيطالية للإنقاذ، كانت تابعة للصليب الأحمر، وبعد يوم آخر من الإبحار على ظهرها وصلوا اليابسة، وبنزولهم تلقتهم الصحافة التي تقتات

على معاناة وبؤس أمثالهم، ولكن سرعان ما تم استدعاؤهم وخرجوا بعدها بحقائبهم في مشهد غير مألوف لهم ولا للصحافة.

وضعوا مؤقتا بمكان فيه جمع غفير من الأفارقة وكما أخبرهم بعض الأفارقة أنهم سيتم إرجاعهم إلى القارة السوداء، فاسودت في أعينهم أمهات أعينهم، ولسوء تدبيرٍ منهم حاولوا الهرب ونجحوا في ذلك، ثم قبض عليهم بعد يومين، وعلى إثرها تكفل الصليب الأحمر بوضعهم على جادة السرايا الحمراء بطرابلس. لم يسمع بقصة إبحارهم ولا إرجاعهم إلى اليابسة أحد إلَّا بعد سنين.

الصمت هو الصديق الوحيد الذي لن يخونك أبداً.

كونفوشيوس

(١٧) كتم السر

بعد فشله في الهجرة انتقل عاشور إلى طرابلس رسميا ليعيش هنالك، فنظام العمل في الشركة النفطية يقتضي وجوده في الصحراء شهرا كاملا، ثم يستريح شهرا، وهكذا، فاستأجر منزلا في طرابلس ليكون أقرب إلى الحضارة والمطار، فللشركة طائرة خاصة تحمل موظفيها إلى مقارها ومواقعها في الصحراء. سمع دياب باستقرار عاشور في طرابلس فانضم للسكن معه، وقد كتم عاشور عنه خبر هجرته بحرا وعودته، وتعامل مع أصدقائه وكأن شيئا لم يحدث، فهو لم يغب إلَّا أسبوعا أو عشرة أيام.

أما دياب فعلى حالته فلا زالت تلك النافذة التي أطل منها صديقه التشادي مفتوحة توحي له بمغامرة جديدة. فاتصل بصديقه

إســحاق التشــادي وعرض عليه صفقــة العمر، لن تكلفــه إلَّا بضعة مكالمات هاتفية إلى هنا وهناك.

عند عودته من ســبها إلى طرابلس رأى دياب تلك الشاحنة ذات الثلاثة طوابق لنقل الماشية، وتذكر صديق الوالد حسن العابد، وتذكر كيف كان يقلده بعبارة: (اسمع يا حاج: التعب على خمسة نعاج هو نفسه التعب على خمسين نعجة)، من هنا طلت عليه لحظتها صورة إسحاق التشادي فهاتفه:

ـ مرحبًا بك إسحاق. منذ فترة لم نتحدث.

ـ أهلاً دياب. نعم فأنت غادرت الجنوب.

ـ دعــك من هذا.. أريدك في أمر غايــة في الأهمية والفائدة، يعود عليك بالنفع، ويغير حياتك، ويجعلك فوق الريح.

ـ تفضل دياب..

ـ ليس على الهاتف، سأكون بعد أسبوع في الجنوب ونتحدث.

في هــذه الآونة حاول دياب الحصول على شــاحنة كبيرة ليزيد مــن حجم بضاعته الآدمية، فتذكر يوم كان جالســا في العيادة، وقد تعرف على رجل اسمه رضوان وكان لدى والده شاحنة. تذكر الموقف

واتصل بالرجل، وتقابل مع والد رضوان صاحب الشاحنة، واتفقا على الاستئجار، بعدها استلم دياب الشاحنة وانطلق بها جنوبا، هذه المرة لينقل بها تبناً إلى الشمال. التقى مع إسحاق التشادي وأفهمه المهمة، وتتمثل في استقطاب الأفارقة وتجميعهم في نقطة تَجَمُّعٍ في إحدى قرى تشاد أو النيجر وهي النقطة الأولى؛ ليتم بعد ذلك نقلهم عبر الصحراء إلى نقطة تجمع بالقرب من تمنهنت وهي النقطة الثانية، ومن ثم إلى نقطة معينة بالساحل وهي النقطة الثالثة، أما النقطة الرابعة فهي نقطة بأحد سواحل إيطالية سيتم التنسيق لها لاحقا. كانت مهمة إسحاق هي التجميع في النقطة الأولى والإشراف على الطريق عبر الصحراء، فيما يتكفل دياب بالباقي إلى نقطة الساحل، لكنه بعد ذلك ستمتد يده إلى سواحل إيطاليا لتأمين الوصول لبعض المهاجرين.

بدأ عمله واستمر على هذا النظام ذي الأربع نقاط فترة من الزمن، كوَّنَ بها رأس مالٍ كبير، مكنه من شراء الشاحنة وتهيئتها في إحدى الورش لتلائم عمله، وضمان مَنْ على الطريق من بوابات ودوريات، وكان معهم كريما لأبعد حد، وامتد كرمه لينال زوجته فقد أرسل لها ورقتها؛ وذلك بطلبها هي، نظرا لعمله المشبوه، وكانت قد رجعت لبيت أهلها مرتين فيما سبق ويعيدها رغم أنفها،

لكن هذه المرة أرسل هو الورقة وأخذ طريقا آخر دونها، مثلما أخذت (شيري) حبيبة سَاسِي طريقا آخر لها بعيدا عن حماقته التي جعلته يلهث وراء حبٍ في الخيال، حبٍ من طرف واحد وأحمق.

اتــكأ على بضع نظرات، ربما لم تكن لــه في الأصل، جعلته هذه النظرات والحماقات يغير حياته، يغادر أرضه، يبدل مساره العلمي لأجلها، وكم كان بليدا حينما صدمه دياب مرة بقوله:

ـ تحبها يا سَاسِــي !؟ لو أنك أحببــت بقرة من أبقار خالك لكان أفضل لك، على الأقل تعطيك حليبا.

لم يَرُدَّ بكلمة، ظل واجما، خاصة وأن الأمور اختلطت عليه، فقد تُوفِّي أبوه وهو في طرابلس، ولم يستطع الذهاب لتقبل العزاء، لأن أمر (شــيري) قد شاع بين أبناء القرية، وتداول الجميع قصة انتقاله إلى طرابلس وراء فتاة ليكتشف حماقته عندما علم أنها في طرابلس لبنان وليس ليبيا. هذه الظــروف جمعت الأصدقاء من جديد في طرابلس، وليس في تمنهنت بلد الديس والتاليس.

الحياة مستمرة سواءً ضحكت أم بكيت فلا تحمل نفسك همومًا لن تستفيد منها.

باولو كويلر

(١٨) لقاء الرفقة

ظلــت أرجل الخنافس تــدور حول بنات أفــكاري، ولم أنس ما حاكه لي ذلك الصول، وما رماني به المساعد وما كاده لي من مكائد، وإن لم يمسني ضرر جسمي ولم يتعرض لي كائن بالأذى إلَّا أنه تعاظم في نفســي كُره البدلة العســكرية، وصار مقتُها نهجا لي، فأصبحت أرى الصول في كل عســكري، وأرى المســاعد في كل ضابط بالشــارع، استلمت انفكاكي من المعسكر البغيض، واستلمت شهادة تخرجي من الجامعة، التحقت بصحبتي القديمــة، فقد اجتمع الثلاثة في منزل بأحد شــوارع العاصمة، كنت آخر المنضمين، أسعفني غباء مني ومن صديق لي بأن الأيام ستشرق لي بعد أن ألتقيه، ليأخذ بيدي إلى طريق المجد والشهرة، فهو واحد من أعيان الدولة، أديب شاعر مرموق له باع طويل، تضيق باسمه مكتبة التلفزيون.

نَسَّــقَ الصديق ذلك اللقاء المرتقب عن طريق أحدهم، وقد حدد لنا مكان تواجد هذه الشــخصية الدائم. كان يتواجد أغلب الأيام في فندق فخم مســاءً، قيل لي أنه سيســهل لك طريق الاحتراف في الشــعر، وستكون شاعر الدولة إذا ما التقيته وإذا ما اقتنع بشعرك.

تاقت نفســي لذلك، ولا أحد يكره أن يكون في منزلة مرموقة، أو في حظوة من البلاط، وما يفصلني عن ذلك إلّا ســويعات وبعض قصائد ألقيها بحضرة شاعر الدولة الأول. كنا مع الموعد أنا ورفيقي، والتقينا بالوســيط الذي سيوصلنا إليه، اصطحبنا عبر الشوارع الضيقة، وصلنا الفندق، فقال الوسيط لنا:

ـ هنا ســأتوقف، لا أســتطيع التقدم، لا أريده أن يراني. لكن لا يجب عليك يا عَمَّار أن تتمســك برأيك كثيرا، إذا أعطاك ثمنا مناسبا في القصيــدة فلا ترفض ذلــك، إنه في الغالب يشــتري القصيدة بكذا وكذا.

هنا انقلبــت الصورة التي أحملها عن الشــاعر المرموق، ولكن لا يضر، إذا اشــترى من قصائدي ســأكون محظوظــا، على الأقل أتمتع ببعض المردود من هوايتي.

عاد الوســيط، بقينا هنالك إلى المغرب، عندها علمنا أن الشــاعر

المرمــوق لن يأتي، وعلمتُ مؤخرا أن ذلك الوســيط كان يترزق بهذه الطريقــة، فقد أخذ عمولته من صديقي دون علمي، واتضح لي بعدها بســنوات أن ذلك الشــاعر لا غبار عليه من هذه الناحية، فهو شاعر بلا منازع له قدرة غريبة على الصياغة والنظم والشــاعرية والإبداع، هذا الشــاعر هو: علي الكيلاني، حماقــتي دلتني على طريق قصير للشهرة ولم أفلح فيه.

اشــتركنا في تســديد أجرة المنزل، فكانت بسيطة على كل منا، غــير أني كنــت أقلهم مالا، لم يكن لي عمل ذو قيمة، كنت أكســب مما أرسمه على المحال التجارية، وهو عمل غير ذي ربح، لكنه هو المتاح، على الأقل إلى حين تتحســن ظروف وأجد عملا مثل عاشور، أو مثل سَاسِي على أقل تقدير.

فسَاسِــي يتقاضى راتبًا بســيطا، لكنه ورث عن أبيه قطعة أرض كبيرة إلى جانب المزرعة، لو تصرف فيهما لانقلب حاله إلى الأفضل، فيما يتمتع عاشــور براتب كبير، فكان يرســل لأهله جزءا ويدخر الباقي، ثم إنه افتتح سوقا كبيرا في ضواحي طرابلس عوضا عن السوق الــذي باعه قبل إبحــاره لإيطاليا وعودته؛ مما عــزز دخله بدرجة كبيرة.

أمـا ديـاب فلا زالت النقـاط الأربع تذُرُّ عليه أمـوالا لا يعرف فيمـا يصرفهـا، فقد أوكل النقطة الأولى لإسـحاق التشـادي، وهي تجميـع المهاجرين في تشـاد والنيجر، وتولى هـو النقطتين الثانية بين سـبها وتمنهنت، والثالثة في السـاحل، مع بعض المسـاعدين هنـا وهناك، بينما النقطة الرابعـة تقاسمها بالثلث مع عميل يمثل الشـرطة الإيطالية وعميل آخر بخفر السواحل الإيطالي، لأن مسألة أن الأوروبيـين لا يريدون الهجرة أمرٌ مشـكوك فيه، لأنهم هم من يشجعهم ويجعل منهم تجارة مربحة.

ظـل ديـاب على هذه الحـال، ذات يوم وهو يحمل شـحنة من الأفارقة نسـي باب الشـاحنة دون تأمين، وهو الذي لم يكن ينسى ذلـك، فالأفارقـة عالم مختلـف، لا تسـتطيع التنبؤ بمـا يدور في ذهـن أحدهم؛ لذلك من الآمـن أن تغلق على نفسـك الأبواب وأنت في الطريق، لكن أحدهـم كان متربصًا بدياب، لا طمعًا؛ بل انتقاما، فلم تكن معاملة دياب بالإنسانية، ولربما اضطر لهذه المعاملة، فمن الواجـب أن تظهر قويا في وجه من تحملهم؛ لتأمن مجرد التفكير في الغدر بك. كانت الشاحنة تسـحب الطريق بسيرها، نزل الأفريقي من الصندوق خلسـة، دخـل ذلك المنتقم (كابينـة) القيادة بعد فتح الباب بخفة.

تفاجأ دياب من سرعة دخوله وإشهاره سكينا، الأفكار هنا تأتي بلمح البصر، لن يتمكن دياب من منازلته بالسكين على الرغم من أنه لا يسافر دون سلاحه الأبيض (الكمَّيَة)، لكنها لن تفيد في هذا الموقف، فأخرج على طريقة الكاوبوي مسدسه، وبدون تصويب أطلق رصاصة، اختفى الأفريقي مع صوت الرصاصة، لم يدر دياب ما الذي حصل، الرصاصة لم تصبه، فلا دماء، ثم إن الثقب الذي خلفته الرصاصة كان في سقف المقصورة، وعندما وصل لم يجد ذلك الأفريقي من بين المجموعة. لكنه تأكد أن ذلك المنتقم خرج بالسرعة التي دخل بها هلعًا.

نجا دياب من الموت فيما مات الأفريقي في أغلب الظن، فسقوطه من أعلى والشاحنة تسير بسرعة مئة كيلوا مترا على الأقل لهو كفيل بأن يقتله، وإذا لم يمت من السقوط فسيموت من نزفه فلن يجد في تلك الأرض المقطوعة من يقف لينجد شبحا في آخر الليل.

ربما أثرت هذه الحادثة في نفسية دياب فأصبح لا يهدأ له بال، ولا تمضي ساعة من النوم دون أن يقفز ويصرخ فيفزع مَنْ مَعَهُ في الحجرة، ولم نكن لنتركه يذهب، لكنه يأبى، وقال مشكلتي سأحلها لوحدي ثم أرجع لكم، استأجر منزلا، وذاب في عزلته إلا من أشباحه وكوابيس ليله.

بدأت تدور فيما بيننا مشـكلة دياب، ويعز علينا أن نراه هكذا ولكن ما باليد حيلة، كما أصبحت تتردد علينا فكرة أن كل واحد منا فقد حبيبته، ولسان حالنا يردد:

فما البقاء بأرض لا حبيب بها

بدأت فكرة الهجرة تلوح من بعيد ثم تحل ضيفةً في مجالسـنا، ثم أصبحت عمـدة المجلس، وأخذ كل منا يدعمها بما يوافق ظروفه وقصتـه، فيما يخصني أنا فكثيرا ما تتردد بذاكرتي رفيق السـجن الذي قال لي: (والله لو كانت لي يدك لما بقيت في البلد يوما إضافيا) وذلك عندما رسمت له وجه حبيبته، ومما يدعم موقفي نصح عاشور لي وتذكيري بأنه لا يوجد دعم ولا تشـجيع في هـذا البلد، وأنه لو كنت في بلد حرٍ يُقَدَّسُ فيه الإنسان ويُؤخَذُ فيه بالمواهب لكنتَ اليوم من كبار الرسـامين، ولكنت أنت وبيكاسوا في نفس المرتبة. أعجبني كلامه، وضحكت عليه في الوقت نفسه، فأنا لا أملك من موهبة الرسم إلَّا اسمها، مجرد خربشـات، وضحكت كذلك علـى نظرتنا، وكأن الغرب ليس به مواهب، فلو كان ذلك الاهتمام موجودا لرأينا الآلاف أو الملايين من بيكاسو ودافنشي.

لكن شـيئاً من الهوى أقنعـني بكلامه في آخر المطـاف. فهذا ما

كنــت أود سماعه، أما سَاسِــي فحلمه بشــيري أورده أبعد مما نفكر فيــه، فربما لا زالتْ عالقة في ذهنــه، أو أنه يحاول الانتحار غربةً واغترابــا، لا يأبــه بأي اتجاه يسـلكه، فبعد أن تغــرب عن قريته واغترب بفكره حرَّم على نفســه الرجوع إلَّا بشخصية أخرى ترد له اعتباره ومكانته. ولعاشور شأنٌ آخر، فهو لم يخبرنا بقصة إبحاره، ولم يلمــح مجرد التلميح بذلك، مقولته دائما: فيما البقاء في وطن لا يقيــم وزنا لمواطنيه، وما فائدة العمــر الذي تحياه مكبلا بالعقوبات والخوف والفقر والمرض.

فــكان ينصح أكثر ما ينصح بأن يغترب الفرد، وكان يعزز موقفه بحكــم وأمثــال كأن يقــول: لا كرامة لولي في قومــه. وغير ذلك من أمثال، لا نعلم هل اخترعها أم استحضرها.

في تلك الأثناء كان دياب منعزلاً بنفسه، بسبب الكوابيس الليلية وصراخه، مما سبب له الحرج، لكن ما إن بدت فكرة الهجرة تتبلور عندنا حتى اســتدعيناه في معظــم الأوقات، ومن ثم رجع ليبقى معنا طول اليوم، مع احتفاظه بالمســكن الذي اســتأجره على ذمته، فكنا متنقلين بين البيتين، نبيت أينما يحلو المبيت، نســهر حيث يحلو ويطيب لنا. عندما تم طرح الفكرة على دياب، وافقنا بشدة ثم قال:.

ـ لكن الهجرة لم تعد سهلة كما كانت عليه سابقا.

ـ ماذا تقول يا دياب !؟ نحن نتكلم مع رأس من رؤوس التهجير والتسفير. وتقول لنا لم تعد سهلة.

ـ نعم هي كذلك. يا أصحاب.. الهجرة نوعان، إما أن تهاجر على كف عفريت، وينتهي بك الأمر بين أسنان السمك، وستموت ألف مرة قبل أن تموت، أو أنك تهاجر بالتنسيق مع الجانب الإيطالي، وتوفر وسيلة آمنة وهذا يتطلب أموالا لا حصر لها. فمنذ اللحظة التي تفكر فيها بالهجرة وأنت تنفق الآلاف.

ـ الأموال يمكن توفيرها، ويمكن لمن لا يملك أموالا أن يَسْتَلِفَ، وسيتمكن من ردها من أول شهرين.

ـ حسنًا إذا كنتم مستعدين للدفع فهاكم المطلوب.

ليس التجهيز للهجرة في تلك الآونة بالأمر السهل، فالمركب يجب أن لا يكون محليًّا، ويفضل أن يكون كبيرًا حتى لا يثير الشك ولا يتم قصفه من القطع الحربية الأوروبية، إن هنالك شبكات سرية لتهريب المهاجرين، وهم يعملون بشكل رسمي مع وسطاء للحكومات في الجانب الأوروبي، وإذا لم يتم التهريب عن طريق هذه الشبكات فإن الوصول غير مضمون في أغلب الأحيان، ستذهبون بشرًا وتعودون

جثثًا أو قطعًا من الأعضاء الآدمية.

ولتأمين الوصول إلى الجانب الأوروبي يجب التنسيق مع خفر السواحل الأوروبي، وهذا يتطلب المبالغ الكبيرة، أما التأمين داخل الأراضي الأوروبية فللشرطة نصيبهم كذلك، إضافة إلى اشتراط أن يكون لك تنسيق مسبق مع جهة تضمنك وتوفر لك عملا، كي لا يزداد عدد المشردين في شوارعهم. يتم هذا عن طريقين، إما أن تتنازل عن قسم من راتبك أو دخلك طوال بقائك هنالك، أو أنك تدفع مبلغا كبيرا تكوِّن قد حولته إلى حساب أحدهم ليتم تأمينك وإبلاغك لمقر عملك وإقامتك، هذا هو قانونهم.

ـ لا يهم.. أيا كان فهو أفضل من بقائنا في وطن لا تشعر فيه أنك إنسان وليس به قانون.

ـ هههههه يعني أنك لا تشعر أنك إنسان يا عاشور. ماذا إذن ؟!

ـ ليس وقت مزاح يا سَاسِي.. يجب علينا أن نتدبر أمرنا في هذا القانون الغريب. هذا هو المهم.

حزم سَاسِي لسانه ووضعه تحت أضراسه. فيما قرن دياب بين حاجبيه وأخذ يحك رأسه من الخلف ناظرا إلى أسفل. بينما استلقيتُ

على ظهري واضعا رجليّ علــى الحائط وقد ترددت كلمة قانون على مســمعي، فحملتني الذاكرة إلى ما قبل دخولي المدرســة، ربما كنت في الخامســة، تذكرت أن أبي حشــرنا في تلك السيارة (رينولت ٤) وأخذنــا في زيارة لأحد أصدقائه، وذلك بعد المغرب، وصلنا، أخذتُ باللعب مع أترابي فيما أخذ الرجال يتجاذبون أطراف الحديث وهم يشــاهدون التلفزيــون، تلك الأيام كانت البدايــات الأولى للتلفزيون في القريــة، لم أعرف هــذا، ربما كنت أظــن أن التلفزيون له مئات الســنين، أتذكر أن المذيع يتحدث ويذكر القانون كثيرًا، عرفت أنها نشــرة أخبار بعد أن كبرت من أسلوب النشرات، أذكر أني سألتهم: ما هــو القانون فلم أجد إجابة من أحد، ترك هذا التجاهل لســؤالي صورة عن القانون، تخيلتُ وأنا ابن الخامسة أنه حيوان أكبر من القط وأصغــر من القرد، ظلت هــذه الصورة في مخيلتي إلى يومنا هذا، ولم يمحها دستور ولا قانون لحمورابي.

أيقظ غفوتي سؤال لدياب لي.

ـ هل لديك مال يا عَمَّار ؟

ـ يمكنك الإجابة عني بنفسك.. لا مال لي.

ـ لا عليك.. المسألة محلولة. يمكنك أن تستدين مني إلى حين.

لم ترق لي الفكرة، رفضتها من الأول بقولي له

ـ إن عاشور سيُدَيِّنَني ما أحتاج.

وفي الحقيقة لم أكلم عاشور في هذا الشأن، لكن عاشور فهم الأمر وأكد مقولتي بقوله: نعم نحن لبعضنا بعضا في السراء والضراء. بقي سَاسِي، ليس له إلَّا قطعة الأرض والمزرعة، أخذ منه بيعهما أسبوعا واحدا، تم تحويل المال له على إحدى شركات الصرافة، وكان يعلم أنه بهذه الصفقة قد أحرق مركب العودة، وما له الآن إلَّا المضي في دربه مكرها لا بطلا. فلم يبق لأسرته إلَّا المنزل الذي هم فيه، تصرف في أرضه وأرض أخوته قاطعا وعدا لهم بأن يعوضهم بعد سنة عن أرضهم والمزرعة، فهذا كل ما تركه أبوه الذي لم يكمل حولا بعد وفاته.

ومع هذا لم يَفِ كل ما جمعه من مال لتكاليف الرحلة، فقام دياب بسد العجز عن سَاسِي، وذلك بعد بيعه الشاحنة وما يملك من آليات ومن ذَهَبِ زوجته التي تركته ونفذت بجلدها.

تكفل عاشور بسد المصاريف عنِّي كاملة بعد أن باع سوقه التجاري الذي استعاده ثانية، وباع جميع ما يملك، إضافة إلى رصيده المالي بالمصرف، شَكَرْتُهُ كثيرا لكنه في موقفه البطولي هذا رفض أي إقرار

مــني بفضله عليَّ؛ مما زادني حماس لأن تطأ قدماي شــاطئ الأحلام لأحقق الأماني وأرد الفضل لمن أتاه.

بعد أن تأمَّن المال اللازم وُزِّعَتْ المهام فيما بيننا، كان على سَاسِي أن يهتم بالمياه والتموين اللازم لطيلة شهر، تحسبا لأي ظرف، مثل عطــل المركــب أو أن نتُوه أو أي خلل في التنســيق، كما عليه متابعة الطقس في مختلف الوســائل، وتســجيل ذلك في مذكرة، فيما أُوكِلَتْ لي التجهيزات الخاصة بالمركب من بنزين وأدوات ملاحية كسترات نجاة وأطواق وملابس وتنوير وغير ذلك من مســتلزمات كتبها دياب في قائمــة وقمت بتأمينها، كان علــى دياب تأمين الطريق البحرية، والتنسيق مع خفر السواحل، وأجرة المركب وأجرة الربان ومساعده، وتولى عاشــور مسألة التنســيق داخل الأراضي الأوروبية، وتحويل الأمــوال للمنســقين الضامنين لنــا، إضافة إلى عميل الشــرطة التي ســيؤمن لنا منافذ وممرات نســلكها وصولاً إلى مقر الســكن المؤقت، ليتولى الضامنون استلامنا بعد ذلك.

لا يولد البشر مرة واحدة يوم تلدهم أمهاتهم وحسب؛ فالحياة ترغمهم أن ينجبوا أنفسهم.

غابرييل غارسيا ماركيز

(١٩) إبحار

أدى كل من الرفقاء مهمته، جرى التنفيذ بدقة وفق ما تم التخطيط له، غير أن دياب أضاف شيئا ليس بالجيد، فقد أضاف لنا نحن الأربعة أربعين إضافيين، كانوا أفارقة ممن يستقبلهم بالقرب من سبها ويقطع بهم الطريق إلى الشمال، فعارضناه بشدة، وقف سَاسِي إلى جانبه، ربما لسيطرة دياب أو لانكسار سَاسِي بسبب اقتراضه المال من دياب، كانت الحجة أن هؤلاء بما سيدفعونه من مال سيخففون الثقل على الكل، ثم إنهم لن يواصلوا الإبحار طوال الرحلة، فسيتم إنزالهم قبل الساحل بأميال ليواصلوا سباحة، لكن الأمر به خطورة تصل إلى حد التفريط في الحياة مقابل بعض المال،

فجميعنا هاجر ليحيا لا ليموت، فمن أين تضمن تصرفات أشـخاص لا تعرف لغتهم ولا طباعهم ولا دينهم، وهم يفوقون في العدد بعشرة أضعـاف. لم يقتنع، وأجاب أنه متمرس مع هذه الجنسـيات، وأنه يسـتطيع فهم لغاتهم علـى اختلافها، وأنه محتـاط جدا فلا داعي للخوف.

وافقنا على مضض، وكنا نشـعر بجسـامة الخطـأ الذي اقترفناه والخطـر الذي يحيط بنا، لأنه من المتعارف عليه أن في عرض البحر من نـام مات. هذا هـو القانون. فمياه الشـرب قليلـة مهما كثُرت والطعام قليل مهما زاد عن الحاجة، والأمواج عالية مهما انخفضت، والوصول غير مضمـون مع العدد الكبير. والمهاجـرون يدركون هذا ويطبقونه بحذافيره، فلا أحد سـيعطيك حبل النجاة ليغرق هو، ولا من يسقيك ليموت ظمأ، شعارهم: ادفع رفيقك قبل أن يدفعك، يلجأ البعض لتعليق الخنافـس في رقابهم وعلى صدورهم وذلك في حالات النوم القاتل، فحركتها تدفع النوم لأميال.

ذهـب كل منا لإحضار ما جهزه للرحلة، فيما يقبع المركب على بعد أميال ينتظر السـاعة ليتقدم إلى أقرب نقطة، اسـتلم دياب قبل يومين المبالـغ التي على الأفارقة أن يدفعوهـا ثمنا لرحلة الخلاص

الأخــيرة، اختار لهم مكانا بالأحراش القريبــة من البحر ليختبؤا فيــه ليلتهم، وقد رافق كل منهم كمية من الترامادول، فما من وقت هــم أحوج إليه من هذه الأيام، تجمع الكل وقاد دياب الأفريقيين إلى ســطح المركب، مع كل واحد منهم كيس به لباس ضد المطر، وســلم كلاً منهم ســترة نجاة، وسلمه كيســاً به طعامه وزجاجتي ماء عبوة ســبعة لترات، من هنا أنت مســؤول عن نفســك، عن مائك،طعامك لباســك، حياتك، أفهمهم هذا ونَصَّبَ عليهم ثلاثة أشخاص منهم؛ ليراقبوهم ويكفونا شرهم. الربان ومساعده يلوكان علكا وينظران من زجاج مقصورتهما، تقدمنا بما حملنا من أدواتٍ ومياه وطعام، أتحنا لأنفســنا النظر لآخر مرة إلى تراب هذا الوطن وأشجاره وأضواء مدنه المتلألئة، وأخذ كل منا نفســا عميقا، عدا عاشــور فإنه لم ينظر ولم يأخذ نفســا، قائلا لن أنظر إلى الوراء وأمامي العالم بأسره، والحرية تضحك لي بملء شدقيها، والنَّفَسُ الذي سأتركه سيحل مكانه أَلْطَفُ منه وأكثر إنعاشًــا، لم يــرد عليه أحد، ولكن تفــوه كل منا بعبارة جاءت بعفوية:

ـ البحر من أمامكم.(عاشور)

ـ لو أني أعلم أن البحر عميق جدا ما أبحرت.(عمار)

ـ يحزمُ الديس ويرقى في السماء. (دياب)

لم يتكلم سَاسِـي لكنه فاجأنا بأن أخرج سـبع حجرات ورماها خلفه علـى طريقة الطالبات اللاتي تخرجن من الإعدادية فرمت كل واحـدة منهن سـبع حجرات كناية عن قولهن: لـن نعود لك. وهذا ما قصده سَاسِـي، وهو يعرف أنه سـيعود ولكن بعد أن يتغير جلده وعقلـه. نظرنا إلى الخلف من على أكتافنا، أخرجنا جميعًا جوازات سـفرنا، مزقناها قطعا صغيرة، رميناها في المياه، فلن يحتاجها أحد منا بعد ذلك، فهي آخر علاقة بالوطن الذي لم يبق لنا فيه إلَّا أطلال أقارب، سيموت نصفهم قبل أن نعود يوما ما، هذا إذا قررنا العودة. هكـذا بررنا ما قمنا به، ثم إن تمزيق الجواز هو من طقوس الهجرة المتعارف عليها.

تحرك المركـب، بعد أميال لن تعـود لأي مهاجر فرصة العودة وإن قفـز عائدا سـباحة فلن يصل حيًّا، وبهذا كُتِـبَ علينا أن نواجه مصيرنا، ساد الصمتُ في المركب، جميعُ من فيه أخذ ينظر إلى الأضواء التي أصبحت تبعد شـيئا فشـيئا، وأخذت تتناقـص، كما تتناقص الأعين المبصرة، أغرق كل فرد في المركب في لحظات تأمل وتذكر وصفاء مع النفس، صمت الجميع، لم يعد يسمع إلَّا أنين المحرك الخافت.

بعــد فترة لم يعد يُرى إلَّا ضوء مقصــورة الربان، غير أن الربان أنــزل الســتائر ليحجــب الضوء الوحيــد، لا مــن ينبس بحرف، الأفارقــة متكئ بعضهــم على بعض، ونحن أخذنــا جانبا نتفكر في مصــيرٍ اخترناه، يطبقُ علينا الصمتُ حتى إن صوت المحرك نفســه اختفى، فلم يعد أحدنا يســمع حتى نفسه، وهنا تنطلق صرخة قوية خشــنة، دب الهلع فينا كانت الصيحةُ من أحد الأفارقة، ظل يصرخ ويرطن، لم نفهم شيئا ثم سَقَطَ وَخَمَدَ، ربما كانت نوبة صَرَعٍ أو أنها حالة هســتيريا، وكثيرا ما تحصل هذه الحالات، حين لا يعد يرى المُبْحِرُ إلَّا لونين إما الأسود أو الأزرق، ولا يستطيع أن يغادر مكانه.

هدأ المركب ثانية ورجعنا في التفكير في أنفســنا ومآلنا، فقد باع كل من ما يملكه، قطع كل صلة له بوطنه وأهله، ومن لم يبع شــيئا فقد حمل على نفسه ديونا لن يستطيع سدادها إذا لم يوفق في هجرته، الغريــب أنه جميعنا أحس برغبة في النوم، وهذه أخطر رغبة يمكن أن تتبادر لمهاجر في عرض البحر، وســتكون آخر رغبة، لأنه ما إن يغمض عينيه حتى يجد نفســه في فم القرش، ضحك سَاسِي وقال لنا أننا برغبتنا في النوم ودفعنا إياه نشبه الشيخَ النصابَ صاحبَ القردِ، فذلك الشيخ يزعُمُ أنه يعالج المرضى، وهو ينصب عليهم بطرق شتى، منها أنه يحضر قردًا في جلسة العلاج، ويعطي المريض علاجا ويطلب

منــه تناوله في بيته ويقول له: إيــاك أن يخطر على بالك هذا القرد قبل النوم، فيذهــب المريض ويظل يفكر في القرد طوال اليوم محاولا أن لا يخطر عليه قبل النوم، ولن يستطيع أن يمنع ذلك، فالقرد ينط له عنــد أول غمضة عين، فيرجع المريض في اليوم التالي إلى الشــيخ ويقــول له: إن دواءك لا يفيد. ، فيســأله: هل خطر عليك القرد قبل النوم ؟ فيجيب بنعم، فيقول له: لقد حذرتك من هذا.

ونحن نحاول طرد النوم فلا نملك إلَّا أن ننام. لذا من المفترض أن نشكل حراســات، اثنان ينامان والآخران يحرسان النائمين. نظرنا إلى الأفارقــة بصعوبة فرأينا أغلبهم يغط في نوم عميق، أدركنا عندها أن بدايــة الرحلة لا خطر فيها عادة، وتزداد الخطورة في الأعطال أو المشاكل الملاحية.

تَرَكَتْ هذه الهَدْأَةُ نَوْعَا من الراحة على خَلَدِ كلٍ منا فاســتجابت رؤى ديــاب، فأخــذ يعزف لنا علــى أوتار أحلامه، كيف ســيصل ويكوِّن شــركة صغيرة، فالمال اللازم للقيام بها قد أرســله مســبقا، والضامنون يَحْسُــنُ عندهم أن يكون المهاجر ذا مال، فهذا لن يسبب لهم المتاعب، على العكس سيستفيدون كثيراً، وكما أخبره الضامنون أنه فيما احتاج إلى دعمٍ من الدولة ســيكون لــه ذلك، فالدولة بحكم

القانون المستحدث لأجل الهجرة تتكفل بما نسبته ٤٥٪ إذا وفر صاحبُ المشروع باقي القيمة. هذا ما أخبره به الضامنون، وعلى هذا بني خطته المستقبلية.

الأمر نفسه سار عليه عاشور، فقد حول جميع أمواله، بعد نصيحة أصدقائه وزملائه الأجانب في الشركة النفطية التي تركها بما فيها، لكن تخطيطه يضمن له دخلاً أكبر، من ناحية مستواه التعليمي، فهو ليس كالعامل الذي يلتقط رزقه من على قارعة الطريق، هو ذو خبرة وظيفية وذو رأس مال كبير نسبيا، ولو أسهمت الدولة بحكم قانونها بالمتبقي من قيمة مشروعه فلسوف يكون ربحه مضاعفا، وفي غضون أشهر سيكون من عداد أصحاب الملايين. سأل دياب عاشور:

ـ ماذا لو أنني قررت أن أسحب أموالي وأغير الإقامة في دولة أخرى، هل يسمح لي بهذا.

ـ ماذا تقول يا دياب ؟ إنها دولة قانون وحقوق مدنية، لن يضيع فيها دولار واحد.

ـ ستضيع كلها وليس دولارا واحدا..

قالها سَاسِي وهو يضحك، فنهره دياب بأن جحظ بعينيه ثم أجابه عاشور:

ـ اطمئن يا دياب.. تستطيع سحبها متى شئت. لكن عليك أن تُبْقِيَ مئةً أو مئتين دولارا لأجل تسوية وضعك مصرفيا.

لم يفكر سَاسِي ولا أنا في هذه الأمور، فنحن قمنا بالهجرة على نفقتهما، وعلى الرغم من أن سَاسِي قد باع قطع أراضي ومزرعة فإنها لم تسدد قيمة التكاليف فاستدان من دياب، وكانت تكاليفي بالكامل على عاشور.

لم تكن أحلامي كأحلام دياب وعاشور مادية صرفة، فحلمي هو الشهرة، وتسجيل نفسي في قائمة بيكاسو وديفنشي، ولربما ضحك لي القدر أكثر لأسجل في قائمة دانتي وهوميروس، ومن يدري ربما أصبح من ذوي الإلياذات، هذا ما أوحى به عاشور لي ذات يوم، وهو الذي ابتنى لنفسه ما شاء من أحلامه. تسامرنا، تذكرنا أيام الطفولة، وكيف أن عاشور الذي كان يخاف المياه في سطل كيف هو الآن يركب البحر ويشق عبابه، وسردت لهم قصة خوفي من طائر الغرنوق عندما كان يحاول الطيران فمر من فوق رأسي، فانطلقت مسرعا أتخبط في الماء والطين وكيف قفزت ذلك السياج بدون شعور حتى وجدت نفسي ساقطا تحت أقدام الحمار (حوماي) وهو حمار المزرعة كما كنت أسميه صغيرا. كما أعادوا عليَّ قصة حادثة كدوة

الديس الــتي طاردتهم تلــك الكلبة فيها، وكيف أنهم تســمروا في مكانهم لساعة خوفا من تلك الكلبة المسعورة.

المرء لا ينتمي لأي مكان مادام ليس فيه ميت تحت التراب.

غابرييل غارسيا ماركيز

(٢٠) (آزِيني)

مرت هذه الليلة بثقلها رغم التسامر، كما أرخى البحر والليل أكتافهما علينا، لم يكن المركب سريعا، لم ندر لماذا، هل يحاول تفادي الالتقاء بعاصفةٍ ما، أم أنه يحاول مَطَّ الوقتِ ليَكْسِبَ مَالا أكثَر، أعْيُنَنا لم تفارق أشقاء الرحلة، فُهُودُ أفريقيا السود، خاصة وأن هنالك ما يشبه التمرد بينهم، وربما هو نوع من الدفاع المسبق عن النفس، يحاول كل منهم أن يثبت نفسه، كي لا يكون الضحية الأولى، وبالفعل كان ذلك فيما بعد، تشاجر ثلاثة، وكان النتيجة أن تمت التضحية بأحدهم وتقاسم الآخَرَانِ ماءَه وطعامَه، تبادر لذهني القانون، قانون الغاب، وتكاد تتأكد لي كينونة القانون بأنه ذلك الحيوان الأكبر من القط والأصغر من القرد، صورة حملتها في ذاكرتي

أكثر من ثلاثين سـنة، وهاهي تتجسد أمامي، عندما يغيب القانون الفطـري الذي يقتضي معاملة غيرك كمـا تحب أن تعامل يحل بدله القانون المكتسـب، أو القانون البهائمي وهو أن تفرض سيطرتك على المنطقة، وليس بعيب أن تتبول على أطراف المركب لكي تضع حدود منطقتك وتعلـن أنك رئيس القطيع، وهذا يضطـر البقية لمجاراتك ولفرض أنفسـهم بقولهم نحن هنا. هذا ما سـار عليه دياب، نسـي أنه في عرض البحر، أن تهادن هؤلاء الناس وتسُوسُـهم بعقلك أفضل لـك من أن تتعامل وكأنك على اليابسـة وحولك مديد الطرق لتفر إن جرت الأمور على غير ما تريد، تذكرتُ قصةَ ذلك الضابط المتعجرف التي سـردها أحد المساجين بالوحدة الأم بطرابلس، ذلك الضابط كان مستبداً، يرى الجنود كائناتٍ تستطيعُ الكلام، كان لا ينظر إليهم إلَّا عندما يجلد هذا أو يَقْرِضَ جلدَ ذاك بِكِلَّابٍ، كان متنمرا، متعطشـا لـكل ما هو بـذيء، ولم يكن بمقـدور الجنود أن يعـبروا حتى عن انزعاجهـم، لكـن الأيـام إذا أرادت أن تكون عليـك لا لك ليس من المفترض أن تخبرك مسبقا.

حدث أن جاء أمر بالتوجه إلى الحدود، فانتقلت الكتيبة بأسرها لترابط على الحدود الليبية التشـادية، عندها أحس الضابط بما كان عليه سـابقا، لم يكن له من مَهْرِبٍ، ولن يسـتطيع أن يجابه الجنود

الغاضبين، في تلك الظروف يمكن لأي منهم أن يطلق عليه رصاصة، وتسجل الحادثة على إنها هجوم مباغت من العدو، ثم يشاع عن الضابط أنه مات بشجاعة. لكن الجنود كانوا أعقل من ذلك؛ فقد أوكلوا له مهمة واحدة فقط، وهي غسل ملابس الجنود الداخلية طوال فترة بقائهم.

ربما لم يسمع دياب بهذه القصة من قبل، فمعاملته السيئة أوجبت عليه نقمة بعضهم، نحن الآن في ورطة، وهو في الواقع من وضعنا في شراكها، لم تَمُرَّ ساعات النهار سلسة بفعل بعض التقلبات المزاجية للجميع، ربما بِفِعْلِ السَّهرِ، والخوف من المصير المجهول، للمرة الأولى نرى الشمس تنزل لتستحم في تلك المياه الممزوجة بالحناء، ظهرت بوادر الخوف والقلق على كل من في المركب، بمن فيهم الأفارقة، وشعر الربان بذلك، فسلط الأضواء الكاشفة على سطح المركب، مقصورة الربان كانت في مقدمة المركب، وكانت مرتفعة بما يقارب أربعة أمتار، وكان أسفلها شبه حجرة كبيرة، لها مدخل واحد في منتصف المركب، وضعت فيها التجهيزات والأطعمة، الأضواء كانت مسلطة على ظهر المركب والحجرة مظلمة إلَّا من طفيف نور منعكس من خارجها، كان جلوسنا عادة في مدخل الحجرة؛ لمنع الدخول لها، ولوجود سلم مقصورة الربان من

داخلها، مرت ساعات، تناوبنا على النوم، وفي غالب الأحيان نكون جميعنا مستيقظين، فاجأنا ذلك الشبح من داخل الحجرة، يحمل سكين وانقض على دياب، لم نعرف متى دخل الحجرة ولا كيف تسلل ليباغتنا من الخلف، كان هدفه دياب فيما يبدو، لكن مع ارتفاع الأصوات والجلبة التي وقعت نزل الربان ومساعده مصوبين أسلحتهم على الأفريقي، تقدم نفر من الأفارقة وقاموا بتقييده، وسحبوه إلى وسطهم، لم نره بعدها، ومن الواضح مصيره، فمن يثبت عليه الغدر فلا فرصة أخرى له في البقاء. يعدم دون محاكمة، فلا أحد يريد أن يكون المغدور التالي.

الأفارقة بطبعهم أناس مسالمون، قَلَّ من تجدُ فيه الإجرام. ولا يخلو الأمر، لكن أطيافهم واختلاف ثقافاتهم وتنوع أديانهم مع ما يحمله البحر من مخاطر يجعل الحمل الوديع منهم أسدا، فلا أحد يثق في أحد.

جرح دياب في ذلك الهجوم، مضت الليلية وليلتان بعدها، ثُمَّ بَدَتْ بوادر اليابسة وبشائرها تلوحُ، كنَّا نَرى أضواء كثيفة لا يمكن أن تكون بواخر، وتأكدنا من اقترابنا من الساحل، كان الربان يعرف ما يفعل، أوقف من بقي من الأفارقة صفا، سلم لكل منهم سترة

نجاة، مشـيرا لهم بالاتجاه، وأمرهم بالقفز والسباحة إلى الشاطئ، ومن تلكأ منهم وجد المسـدس موجها نحوه، فيلحق بسـابقيه، بعد قفز آخر أفريقي غَيَّرَ المركبُ اتجاهَهُ، وقد زاد من سرعته، فالتنسيق مع خَفَرِ السواحل ألزمهم بتغيير مكان النزول، وعلى حَسَبِ الخُطَّةِ المتبعة تَسَلَّمَ عميل الشرطة نصيبه نقدا، ونزلنا على الرصيف، سرنا بحقائبنا من هنا وهناك، اتصل عاشور من هاتف عمومي بالمنسقين، لم يرد أحد في البداية، وبعد محاولات رد أحدهم، فأخبره عاشـور باسمه وبأنه تقدم للتنسيق تحت رقم كذا، وقد حوَّل المبالغ منذ فترة، وأنـه الآن ينتظر برفقة ثلاثة آخريـن، ولا يعرف أي اتجاه يأخذ، لم يلق إجابة مقنعة أو مشجعة، لكن ما باليد حيلة، رجال الشرطة انتهي دورهم عند تأمين نزولنا إلى الرصيف، ولربما أصبحوا هم من سيطاردنا بعد وقت، أخذت الخيبة ترتسم على وجه الجميع، قابلنا رجلا في الشارع، يتحدث العربية كالمالطية الهجينة، ويبدو أنه من أحفاد المنفيين الذين نفتهم إيطاليا إبان الاسـتعمار، سألناه عن اسم المدينة وموقعها من خريطة إيطاليا، وسـردنا له قصة التنسـيق مع بعض الجهات، أبدى شـفقة وحاول مساعدتنا، طالب إبراز هويتنا كي نتمكن من التجول بكل راحة، فأخبرناه باللحظات الأخيرة قبل الإبحـار بالمركب، وكيف أنا أتلفنا جوازات سـفرنا، فقال فورا: (

آزيني) فهمنا وقتها من السياق أن معنى كلمة (آزني) هو مشكلة، وأوحت طريقة كلامه بذلك المعنى، فقال دياب:

ـ (آزيني آزيني) عندك حقٌ إنها آزيني كبيرة، مشكلة كبيرة، حل لنا هذه الآزيني، يرحم الله والديك.

ـ بما أنكم أتلفتم الجوازات فاعلموا أنه لا بقاء لكم هنا. وستلاحقكم الشرطة وتعيدكم من حيث أتيتم، هذا إذا لم تُطلِق عليكم المروحيات وابلا من نيرانها. والمنسِّقون كذلك سيطالبونكم بالجوازات، والمؤسسات التي ستشغلكم تحتاج جوازاتكم، ولن تستطيعوا أن تسحبوا أموالكم التي دفعتموها بغير الجوازات، البشر يجب أن يكون عندهم جوازات، (آزيني) فقط دون جوازات.

فيما بعد أدركنا المعنى الحقيقي لكلمة (آزني) وهو (حمير) بالإيطالية.

أكمل الرجل كلامه وانطلقنا في اتجاهنا نتخبط، لا ندري ما نفعل، أدركنا أننا كنا نلعبُ مع الغرب، لكن الغرب لا يلعب معنا، تغيرت صورة المدينة في أعيننا إلى جزيرة مليئة بالجماجم والعظام، أما أنا فقد عاد يرقص أمامي ذلك القانون بذيله، وصار كل واحد منا ينْدُبُ حظَّه، استيقظ عاشور من الصدمة، وهو الجسور الوحيد بيننا

كمـا يتراءى لنا، ربما لتجربته الهجرة مـن قبل، وهو إلى اللحظة هذه لم يخبر أحدا بقدومه إلى إيطاليا بحرا فقال عاشور:

ـ يـا أصحـاب.. ليس العيـب في أن تقع؛ العيـب في أن تبقى في مكانك، نسـتطيع رد أموالنا ولو بعد سنين، سنعيش مثل الأفارقة، فلسنا أفضل منهم، سنشتغل في الحقول وندخر الأموال وسنعمل على الجنسية، ونحقق أحلامنا.

ـ ماذا تقول يا عاشـور.. اعلم أنك من هذه اللحظة وأنت مطارد، يعني (آزني)، وربما يتم سجنك بتهمة التسلل للقيام بعمل إرهابي.

لم يكمل سَاسِـي حديثه حتى ظهر شرطيان ومعهم الرجل الذي قال لنا (آزيني) فررنا في الاتجاه المعاكس وأصبحنا نتخبط في براميل كانـت موضوعة على الرصيـف، وانطلق وراءنا الشـرطيان ومعهم (آزيني)، لم يتمكنوا منا. توقفوا فيما زدنا من سـرعتنا حتى بدأت المباني تقل شـيئا فشـيئا، لكننا واصلنا المسير في اتجاه واحد خوف رجوعنـا للمـكان الذي انطلقنا منه، سـرنا طوال الليـل، كنا نريد الابتعاد ما أمكن عن دائرة الخطر، لكن الشـرطيين أبلغا دوريتهما، فأبلغـت الدوريـة مركز الشـرطة والأمن وبـدأ البحـث عنا. عند بشائر الصباح اكتشفنا أننا وسـط جزيرة هي جزيرة (فيرديناندیا)

الإيطاليـــة، أحد جوانبها مأهول فقـط، والباقي عبارة عن أحراش، نباتات وحفر ومستنقعات، فأخذنا نغطس مرة ونزحف أخرى وإذا بالكارثة قد حلت، سمعنا صوت المروحية قال سَاسِي:

ـ إنها المروحية، ستتمكن من اصطيادنا كالفئران. هل يجب علينا أن نتفرق أم نبقى مجتمعـين ؟، على الأقل ينجو بعضنا من رصاص المروحية.

رد عليه دياب بهدوء تام:

ـ لا لا.... يجب أن نبقى قريبين. فلا أحد منا يسـتطيع التصرف بمفرده.

نظر عاشور خلفه فإذا كلاب الشرطة تقتفي الأثر ورجال الشرطة من ورائها بأسلحتهم. قال عاشور:

ـ لو نجونا من عيون الشرطة فلن ننجو من أنوف الكلاب.

واصلنا المسـير ولا خيار أمامنا، نبحث عن مَعْقِلٍ، فالخوف من المروحية أكبر من الخوف من الشـرطة وكلابهم، تدحرجنا وزحفنا حتى وصلنا كدوةً أو تلةً في أعلاها حفرة يغطيها نبات الديس، مكان مناسـب للاختباء، دخلنا الحفرة ولم تكن بالكبيرة بالكاد تستوعب

ثلاثة، لكنا انحشرنا فيها كالسردين في العلبة، لكن صوت المروحية يقترب ويقترب، ومن الجهة الأخرى يقترب نباح الكلاب، لو فررنا من الكلاب لأصابتنا المروحية، ولو فررنا من المروحية لمزقتنا الكلاب، اقترب أحد الكلاب وأخذ ينبح حتى كادت روحه السابعة تخرج، اقتربت منا المروحية أكثر حتى أصبحنا نرى قائدها، فجأة دارت بي الذاكرة تذكرت (حوماي) حمار المزرعة وأنا أرتجف تحت أقدامه، وتذكرت الغرنوق عندما اقترب بجناحيه الكبيرين من رأسي، عندها صرخت دون شعور وأنا أشير في اتجاه المروحية وكأنها ذات الغرنوق: (الغرنوق الغرنوق)، ثم صرخ رفاقي ثلاثتهم في نفس اللحظة مشيرين على الكلب تذكروا تلك الكلبة المسعورة في كدوة الديس قائلين: (كدوة الديس كدوة الديس) بقينا جميعًا، أجسادا في إيطاليا وأرواحا متشبثة بجدائل الديس لأنه لا شيء يملك الأرض كالديس، فقرروا التمسك بالكدوة وقررتُ البقاء مكاني ولا أجري حتى لا أقع تحت أقدام حوماي أو(آزني) إيطاليا.

(انتهت)

٢٠١٧

يسطرون
للطباعة والنشر والتوزيع